

قوص في التاريخ الإسلامي

محمد عبده الحجاجي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

المكتبة الثقافية

٣٦٣

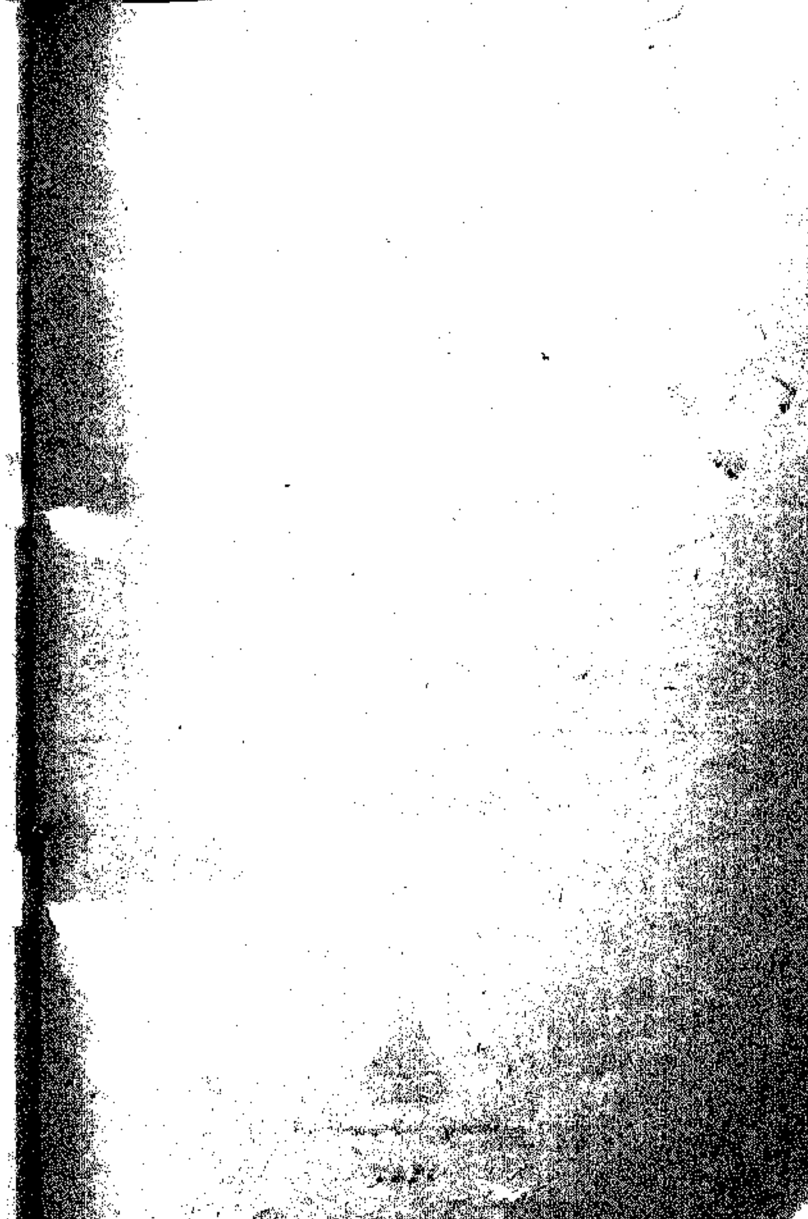
قوص في التاريخ الإسلامى

محمد عبده الحجاجى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

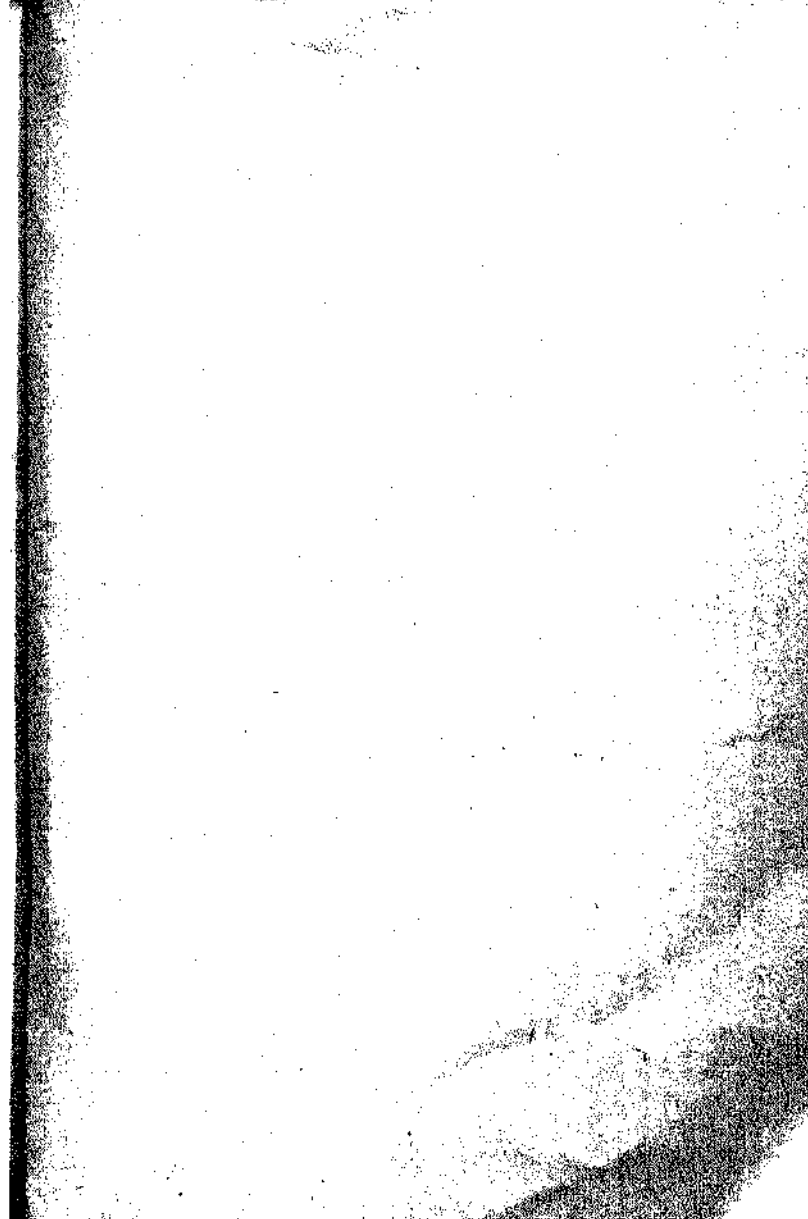
١٩٨٢



الاهـــــداء

الى والدتى

تحية اعزاز واجلال



تمهيـــد

كانت مصر قبل الفتح العربى ولاية رومانية مقسمة الى قسمين كبيرين ، هما : الوجه البحرى ، أو أسفل الأرض ، والوجه القبلى ، أو الصعيد أو أعلى الأرض وكان كل قسم من هذه الأقسام مقسما الى وحدات ادارية صغيرة يعرف كل منها باسم « نوم »nome الا أن العرب قد أبدلوا باسم « نوم » هـذا كلمة كورة وهى التى تؤدى معنى الناحية أو المركز فى مفهومنا العصرى ، وقد بلغ عدد هذه الكور ثمانين كورة فى الوجهين البحرى والقبلى وكانت كل كورة تنقسم بدورها الى عدة قرى ولكل من الكورة والقرية زمام أطيان خاص بهما .. وقد كان يتولى شئون ادارة الكورة نائب أو رئيس وهو ما يشبه مأمور المركز فى عصرنا الحالى وشئون القرية زعيم وهو ما يشبه أيضا العمدة .

وحينما فتح العرب مصر فى سنة ١٨ هـ ــ ٦٤٠ م لم يحدثوا أى تغير يذكر على هذا التقسيم الادارى اذ وجدوا أن هذه الدولة كغيرها من الدول التى فتحوها ذات نظام ادارى ثابت مبنى على حضارة أصيلة ومدنية

عريقة لكنهم أحدثوا من الاصلاح ما يتفق مع عقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الأمة المحكومة . (١)

وقد ظل هذا التقسيم معمولا به الى أن فتح الفاطميون مصر فى سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م فأحدثوا نظام الأعمال ومفرده عمل وهو الاقليم أو المديرية أو المحافظة فى وقتنا الحاضر وكان كل عمل من هذه الأعمال يشتمل على عدد من الكور - المراكز وذلك لكى يسهل حكمه ويصير متماسك البنيان مندمج الاشراف فى الادارة المحلية مع الادارة المركزية فيصبح كأنه وحدة متصلة الأجزاء حتى يمكن ادارتها ادارة سليمة منتجة وقد ظل هذا التقسيم فى جوهره قائما حتى يومنا هذا .

وكان على كل عمل أو اقليم أمير أو وال أو رئيس يتولى شئون الاشراف على عمله أو اقليمه فيسعى الى استتباب الأمن ويحافظ على أرواح الناس وأموالهم وينفذ ما يصدره له الخليفة أو السلطان من أوامر وتعليمات ويتخذ له مقرا دائما فى عاصمة عمله أو اقليمه .

وقد بلغ عدد هذه الأعمال فى الوجهين البحرى

---

(١) الدكتور عطية مصطفى مشرفه ، نظم الحكم فى مصر فى عصر الفاطميين ص ١٠٢ ، ١٢٤ المستشرق الفرنسى لافاريت ، دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة الصعيد ترجمة الإستاذ صبحى ، وسعاد ماهر محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الاسلامى ص [illegible]

والقبلى ستة وعشرين عملا ينفرد الصعيد منها بتسع أعمال وهى : « الجيزية ومقر ولايته الجيزة والاطفيحية ومقر ولايته أطفيح التى تتبع حاليا مركز الصف التابع للجيزة ، والبهنساوية ومقر ولايته مدينة البهنسا وهى الآن من قرى مركز بنى مزار التابع للمنيا والفيومية ومقر ولايته الفيوم ، والاشمونية ومقر ولايته مدينة الاشمونين وموضعها الآن بالقرب من المنيا والمنفلوطية ومقر ولايته منفلوط ، والسيوطية ومقر ولايته سيوط(١) والأخميمية ومقر ولايته أخميم ، ثم يليه مباشرة القوصية وهى من أكبر الأعمال فى الصعيد ينتهى آخره الى مدينة اسوان ومقر ولايته قوص .

وقد بلغت مدينة قوص منذ عصر الدولة الفاطمية ٢٩٧ هـ ـ ٩٠٩ م حتى أواخر حكم المماليك ٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧ م أى ما يقرب من ستة قرون ونصف قمة مجدها وشهرتها حتى أن الكثيرين من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب قد أسهبوا فى وصفها وذكروا محاسنها وما كانت تتمتع به من مكانة مرموقة وصيت بعيد بين مختلف مدن الديار المصرية .

ولقد رأينا والأمر كذلك أن نقدم صورة تاريخية لهذه المدينة الخالدة التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ مصر

---

(١) كانت تسمى فى العصر الاسلامى سيوط مجردة من الألف كما وردت فى اغلب كتب الجغرافيين والرحالة العرب .

الاقتصادى والثقافى خلال العصر الاسلامى اقتفينا فيها أثر من سبقونا من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب الذين نخص بالذكر منهم : « عبد الغفار بن نوح الأقصرى المتوفى ۷۰۸ هـ - ۱۳۰۸ م الذى عاش فى اقليم قوص فى عصر المماليك ووضع مؤلفا فى جزءين بعنوان (الوحيد فى سلوك أهل التوحيد) (۱) تحدث فيه عن كثير عن رجال التصوف وأهل العلم والفضل الذين عاشوا فى الصعيد بالاضافة الى أنه أعطى صورة دقيقة للمجتمع الذى عاش فيه وكذا أبو جعفر الادفوى المتوفى ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م فى كتابه « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » الذى يعتبر موسوعة قيمة لدراسة الصعيد وأهله فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، يضاف الى هذين المصدرين الأساسيين فى هذه الدراسة بعض من كتب التراجم والطبقات التى ألفت فى عصر المماليك مثل « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م ، « والنجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى المتوفى ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م ، « والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » للسخاوى المتوفى ٩٠٢ هـ - ١٤٩٦ م وغيرهم الكثير أيضا ، ولقد استنفدنا وقتا طويلا نفتش فى بطون هذه المصادر أو نعيد الى كشافات الاعلام والأماكن الملحقة بآخرها علنا نلتقط

(۱) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٦ تصوف .

علما من الاعــلام ينتسب الى قوص أو واقعة تاريخيــة لعبت فيها هذه المدينة دورا هاما أو أية معلومة من شأنها أن تلقى ضوءا على تاريــخ مدينتنا هذه فنمت بين أيدينــا من خلال كل ذلك مادة علمية تستحق الكتابة والتسجيل وقد قسمنا هذه الدراسة الى ستة فصول : ـ

الفصل الأول :

التقسيم الادارى لاقليم قوص فى العصر الاسلامى، محاسن هذا الاقليم ومميزاته ، القبائل العربية التى كانت تعيش فى هذا الاقليم منذ أوائل الفتح العربى حتى أواخر حكم الأيوبيين ٠

الفصل الثانى :

قوص ـ الموقع الجغرافى ، تسميتها بهذا الأسم ، لماذا اختيرت عاصمة للصعيد ، وصفها كمــا جاء على لسان أبنائها من شعراء وعلماء ومؤرخين ، قوص من خـــلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب فى العصر الاسلامى ٠

الفصل الثالث :

بناء المجتمع القوصى ، الطبقات ، طبقة الولاة والحكام، القضاة والحجاب ، العلماء والفقهــاء ، التجــار والصناع ،

الحرفيون وعامة الشعب ، النصارى ، الأقليات الأجنبية المرأة ومدى نشاطها .

الفصل الرابع :

المنشئات والمباني ، الأسواق والحوانيت ، المواسم والاعياد الدينية ، موســـم الحج ، الطريق من قوص الى الأراضي المقدسة ، الى صحراء عيذاب ركوب البحر ،المراكب العيذابية ، وسائل اللهو والتسلية ، الغناء والمغنون .

الفصل الخامس :

الحركة العلمية ، فى قوص فى العصر الاسلامى ، مدارس قوص وجوامعها ، خزائن الكتب والمكتبات ، العلوم التى كانت تدرس بهـــذه المدارس وأساتذتهـــا ، الأدب وفنونه ، الكتابة والتاليف ، حـركة النســخ ، الحيـاة الروحية الشيعة والمتشيعون فى قوص .

الفصل السادس :

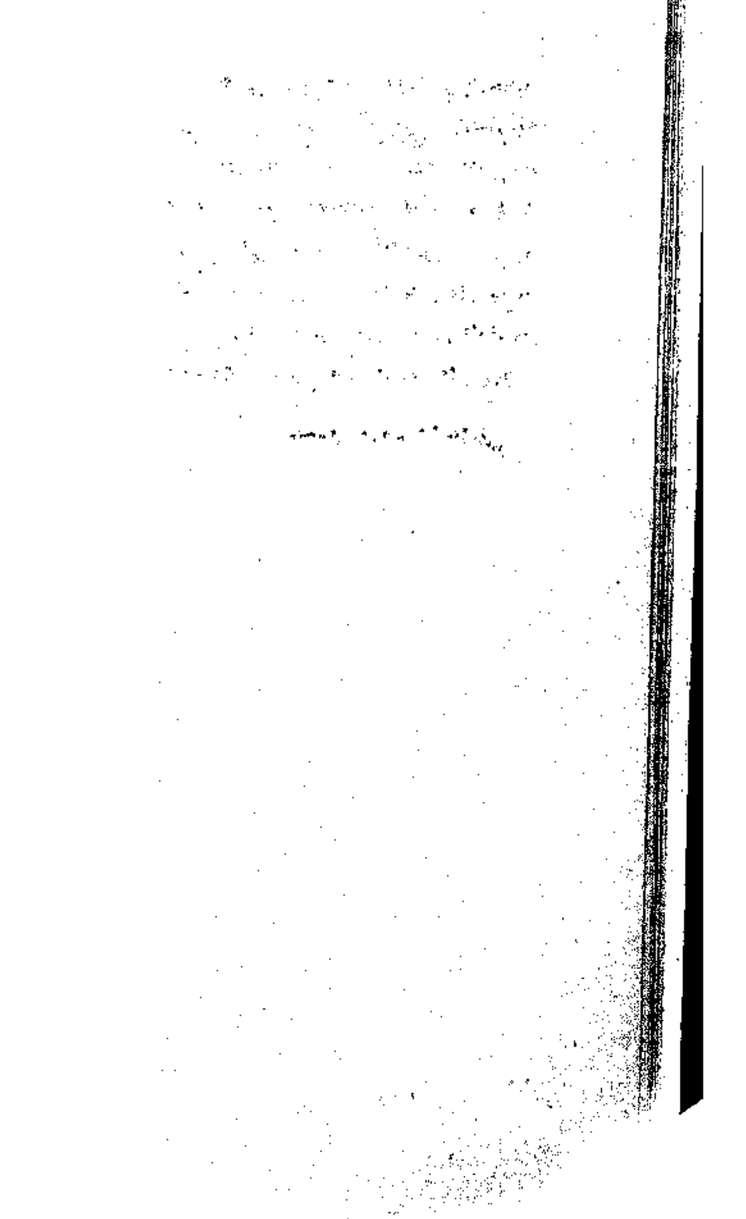
الآثار الإسلامية فى قوص فى العصر الاسلامى .

وبعـــد :

فلسنا نزعم اطلاقا أن هذه الصـــفحات هى كل ما قيـــل أو كتب عن مدينة قوص هذه ويخيل الينـا أن

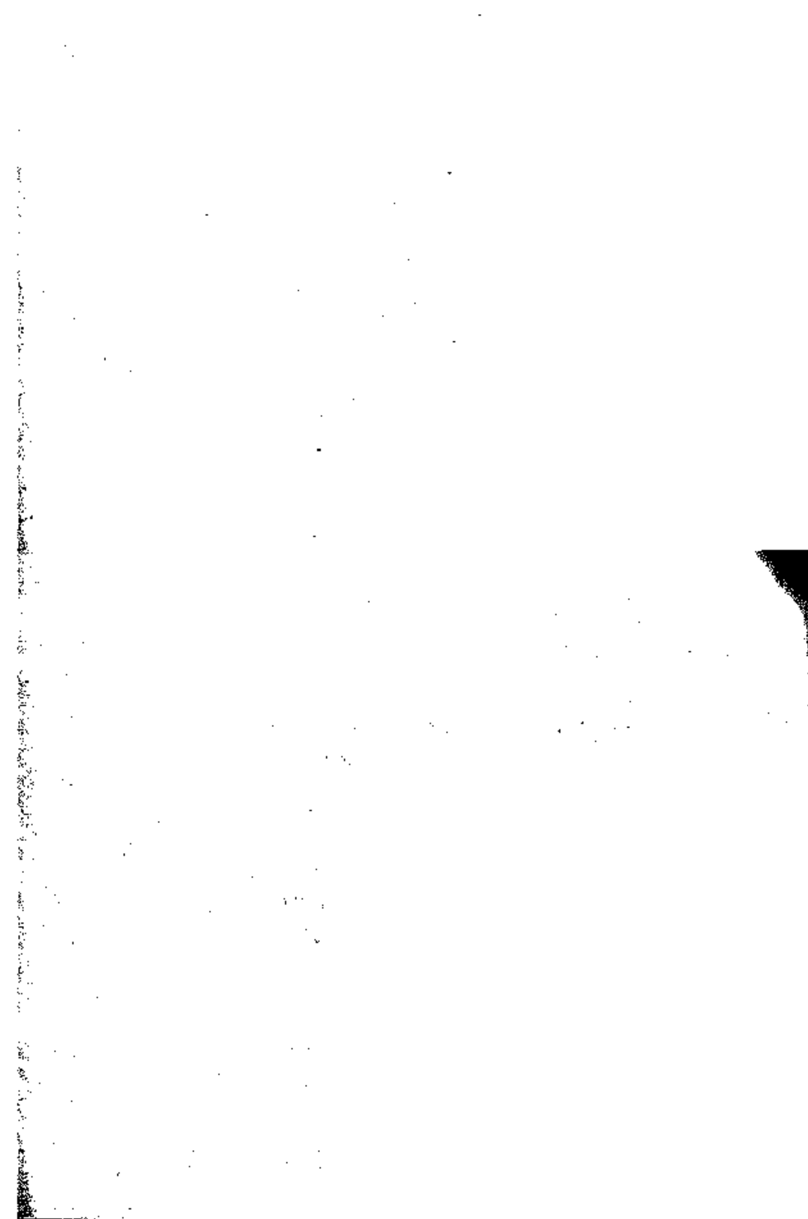
لهذه المدينة فى العصر الاسلامى تاريخا حافلا بالأحداث والمواقف الخالدة ما زال يرقد في بطون المراجع المخطوطة بصفة خاصة والتى يتعذر الوصول اليها ، وما هـــذه الصفحات فى اعتقادنا الا محـــاولة لاماطة اللثام والقـاء بعض الضوء على تاريخ قوص فى عصرها الذهبى ، نرجو الله أن نكون عونا لجيلنا الصاعد وشبابنا الناهض الى مزيد من البحث والتنقيب عن قوص وغيرها من المدن ذات التاريخ والحضارة فى العصور المختلفة ، وعلى الله قصد السبيل .

محمد عبده الحجاجي



الفصل الأول

- التقسيم الاداري لاقليم قوص في العصر الاسلامي
- محاسن هذا الاقليم ومميزاته
- القبائل العربية التي كانت تعيش في هذا الاقليم منذ اوائل الفتح العربي حتى اواخر حكم الأيوبيين .



التقسيم الادارى لاقليم قوص
فى العصر الاسلامى

كان اقليم قوص في العصر الاسلامى مترامى الاطراف تبلغ مساحته في الطول ـ كما يقول الادفوى ـ مسيرة اثنى عشر يوما بسير الجمال السير المعتاد ، وأما عرضه فثلاث ساعات وأكثر وأقل بحسب العامر من الأماكن (١) ويمتد شرقا حتى يصل الى البحر الملح (الأحمر) وغربا حتى الواح أى (الواحات) ويتجه شمالا حتى مرج بنى هميم المتصل بأراضى جرجا من عمل أخميم وينتهى جنوبا بمدينة أسوان (٢) .

ويضم هذا الاقليم فى حوزته العديد من المدن والقرى التى بلغت فى عهد الدولة الأيوبية كما أحصاها ابن مماتى المتوفى ٦٠٦ هـ ١٢٠٩ م فى كتابه (قوانين الدواوين) تسعة وثلاثين موضعا (٣) .

(١) الادفوى . الطالع السعيد ص ٧

(٢) المصدر السابق ص ٨ ـ ٩ .

(٣) ابن مماتى . قوانين الدواوين ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

وفى عصر سلاطين المماليك إدخل على هذا التقسيم كثير من التعديلات فألحقت به مدن ومواضع لم تكن تابعة له فى عصر الأيوبيين . وقد اختلف مؤرخو عصر المماليك في تعداد مدن هذا الاقليم ومواضعه حيث لوحظ ان الكثير من هؤلاء المؤرخين يذكرون مدنا وقرى ومواضع يغفل عن ذكرها البعض الآخر ، فالادفوى يجعل عدد مدن وقرى هذا الاقليم واحدا وخمسين موضعا بما فيها قوص (١) على حين أن ابن دقماق المتوفى ٨٠٩ هـ ١٤٠٦ م فى كتابه (الانتصار لواسطة عقد الامصار (٢)) فى حديثه عن هذا الاقليم يورد سبعة وأربعين موضعا وفى عهد السلطان قلاوون أحصى بن الجيعان المتوفى ٨٨٥ هـ ـ ١٤٨٠ م فى كتابه (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) البلاد التابعة لهذا الاقليم فجاءوا اثنين واربعين موضعا بما فيهم ثغر عيذاب (٣) الذى يقع على ساحل بحر القلزم (٤) (البحر الأحمر) وقد اعتنى

---

(١) الادفوى ، الطالع السعيد ص ٩ ـ ٢٤ .

(٢) ابن دقماق . الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ٥ ص٢٠ـ٢٨

(٣) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخرة باء موحدة بليدة على ضفة بحر القلزم وهى مرسى المراكب التى تقدم من عدن الى الصعيد . قاله ياقوت فى معجم بلدانه تحت مادة عيذاب .

(٤) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاى مضمومة وميم والقلزمة من ابتلاع الشىء يقال قلزمه اذا ابتلعه وسمى بحر القلزم قلزما لالتهامه من يركبه . قاله ياقوت تحت مادة قلزم .

ابن الجيعان في كتابه التحفه السنية بتحديد مســـاحه الاراضي المنزرعة وغير المنزرعة وقيمـــة عبرتهـــا اى خراجها ودخلها كما أشار الى تبعية كل مدينة او موضع لأمير من امراء المماليك الذى كان يطلق عليه في ذلك الوقت (المقطع) وذلك طبقا لنظام الاقطاع الذى كان معمولا به في العصور الوســـطي في حديثه عن مدن ومواضع اقليم قوص الذى يعنينا قد اوضح أمام كل موضع من مواضعه هذه الأمور بصورة تعين الباحث الذى يريد ان يقف على مدى تقــدم هذا الاقليم في جانب الحياة الزراعية (١) لكننا ســـوف نعتمد في دراستنا هذه على التقسيم الذى أورده أبو جعفر الادفوى في كتابه الطالع الســـعيد وذلك لأن أبا جعفر الادفوى قد قسم هذا الاقليم تقسيما جغرافيا سليمـــــا فقد جعله كورتين شرقية وغربية والنيل فاصل بينهما ثم قسم كل كورة على حدة ، فكان في ذلك أكثر وضــوحا من غيره من المؤرخين الذين اعتمدوا في تقسيمهم على ترتيب المدن والمواضع ترتيبا هجائيا نضيف الى ذلك أن أبا جعفر الادفوى بحكم نشأته وتربيته في هذا الاقليم كان ملمــا الماما تاما بكل مدينـــة أو موضع فيه كما أنه كان دقيقا الى حد كبير في ضبط أسماء هذه المدن والمواضع ضبطــا سليما بجانب أنه اعتنى أيضا بكيفية نطقها عند العـــامة

(١) ابن الجيعان : التحفة الســـنية باســـماء البلاد المصرية ص ١٩٠ ـ ١٩٥ .

فمثلا في حديثه عن مدينة ادفو نراه يورد أن بعضهم يجعلها بالتاء أي اتفو (١) وهو نطق لهذه المدينـة ما زال شائعا على لسان العام والخاص حتى يومنا هذا .

فيقول في تقسيمه لهذا الاقليم : هو كورتان أي ناحيتان شرقية وغربية والنيل فاصل بينهما فأول الشرقيـة من بحرى أرض افيو وهو مرج بنى هميم (أى القبائل العربية التى سكنت الصعيد) والمتصلة أراضيها بأرض جرجـا من عمل اخميم وآخرها من قبلى ابهر بضم الهمزة وضـم الهاء وهى قرية ، ويلى هذه القرية قرية تسمى جنوبية أول أراضى النوبة ولسلطان مصر على هـذه القرية مقدر يؤخذ منها .

وتفصيـل مدن هذه الكورة وقراها المعتبرة وأولها (المرج) وتليهـا (الخيام) ويليها (البمبير) المعـروفة الآن بنجع الأمير من توابع ناحية البـلابيش بحرى مركز البلينا ويليها (القوسة) المعروفة حاليـا بنجع القوسة من توابع ناحية البلابيش قبلى ويليها (قصر بنى شادى) وهو قصر بنى كليب ذكره ابن مماتى فى قوانين الدواوين ويليها (فاو بعش) تشترك مع قاو ـ بالقاف ـ من بـلاد أخميم ثم فاو ويليها دشنا ويليها بيج وهى المعروفة حاليا بنجع البيجة بالطوابية المجاورة لناحية السمطا ، وهى من أوسع الأقاليم أرضا ثم يليها (قنا) وهى بقاف مكسورة

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٤ .

ونون مخففه وقد ذكرها بعضهم (اقنى) ويلى قنا (ابنود) بالفتح ويليها (قفط) ويلي قفط (قوص) وهي مدينه العمل الان • وشرقي قوص (العباسه) وشرقي العباسه قريه يقال لها (مسجد النبى) وتسمى (اطسا) • وقبلى قوص قرى لطيفة مضاف اليها (كدمرش) (والناعمة) (وبوقلته) وقد اندرست ويستدل على مكانها الآن بمقام سيدى أبو قلة الكائن حاليا بأراضى ناحية الخرانقة مركز قوص ويليها (شنهور) بالشين المعجمة المفتوحة ويليها (الأقصر) ويليها (طود) وكانت بلدا كبيرا نزل بها بنو شيبان احدى القبائل العربية الأصيلة وهم المعروفون حاليا على لسان العام والخاص من أبناء الصعيد (بالشيبانية) وبعدها أى طود هذه (منايل) ومفرده منيل وهى الجزيره التى يكونها النيل أى انه بعد طود عدة جزر صغيرة تمتد حتى تصل الى أراضى اسنا ثم تمتد هذه الجزر حتى تصل أيضا الى أراضى ادفو ثم (أسوان) بضم الهمزة وهى ثغر من الثغور المعروفة ويليها منايل أيضا • أما الكورة الغربية فأولها (برديس) بالباء الموحدة المفتوحة تتصل أراضيها بأراضي جرجا من عمل آخميم ثم يليها (البلينا) بضم الباء الموحدة وسكون اللام ويليها قرية (بنى غازى) وهى من قرى سمهود ثم (سمهود) بسين مهملة مضمومة وميم ساكنة وهاء مضمومة ثم قرية (ابن يغمور) وهى أيضا من قرى سمهود ثم (مخانس) وهى بميم مفتوحة ثم (جرشوط)

وأوردها بعض المؤرخين بالفـاء أى فرشـوط وهو الاسم المعروفة به حاليا ثم (بهجورة) وهى بباء موجدة مفتوحة ثم (القريه) وهى المعروفه حاليا بنجع القرية من توابع ناحية دندرة مركز قنا ثم (دندرا) ثم (دير البلاس) ثم (طوخ دمنو) وهى التى تعرف حاليا بنجع كوم الضبع من توابع ناحيه طوخ مركز قوص ثم (نقاده) ثم (دنفيق) ثم (دير قطان) المعروف حاليا بنجع قرطان ثم (شوص الكبرى) المعروفة حاليا (بنجع صوص) من توابع ناحية البحرى قمولا ثم (شوص الصغرى) ثم (سمنت) وهى المعـروفة حاليـا بنجع اسمنت الكبيرة من توابـع ناحية الأوسـط قمولا ثم (بشـلاو) وهى المعروفة الآن بنجع بشلاو احدى توابع الأوسط قمولا على الجانب الغربى من النيل ثم (دراو) وهى المعروفة حاليا بنجع دراو من توابع ناحية الأوسط قمولا وليست هناك صلة بينها وبين دراو التى تتبع أسوان حاليا وانما هو تشابه أسماء فقط ثم (شطفنيه) بفتح الشين المعجمة وهى المرسى حاليا ثم (ارمنت) ثم (الدمقراط) وأوردها بعضهم بالدمقرات بالتاء وهى معروفة حاليا بهذه التسمية ثم (يبـوية) وهى ببائين موحدتين وواو وياء آخر الحروف وقد اندثرت هذه الناحية ومكانها اليوم البقعة التى بها مقام الشيخ موسى بجبل موسى بأراضى ناحية كيمان المطاعنة ثـم (طفنيس) ثم (أسفون) وقد وردت أيضا بالصاد ثم (اسنا) ثم (ادفو) وينطقها العامة حاليا (اتفو) بالتاء

ثم (بمبان) بباء موحدة وميم وباء موحدة وألف ونون ثم أراضي أسوان المتصلة بالنوبة • وبهذا ينتهي التقسيم الذى أورده العلامة أبو جعفر الادفوى لاقليم قوص (١) •

وبعد أن انتهى الادفوى من تقسيمه الادارى هذا استطرد يتحدث عن محاسن هذا الاقليم ومميزاته فيقول عن مائه انه أحسن المياه وأحلاها وأن نخيله يمتد على شاطىء النيل ،وقد بلغت الاراضى التى يغطيها هذاالنخيل والبساتين بنحو من عشرين ألف فدان • وقد ترتب على كثرة هذاالنخيل أنغزر محصول التمر فقد جمع محصول التمر في احدى السنوات بأسوان فبلغ ألف أردب كما أن نخلة بالقوصة من عمل المرج وأخرى بقامولة حصل من كل منها على اثنى عشر أردبا من التمر فى سنة من السنين • ثم يقول عن فاكهة هذا الاقليم عموما أنها شديدة الحلاوة حسنة المنظر فيروى أيضا عن العنب أن حبة منه وزنت منه بادفو فجاءت زنتها عشرة دراهم وأخرى احدى وعشرين درهما كما أن بطيخه يمتاز بكبر حبته التى لا يكاد يستقل بحمل الحبة الواحدة الا الرجل الشديد القوة ، وتفوح فى مختلف جهات هذا الاقليم رائحة رياحينه العطرة ، وقد اشتهر هذا الاقليم أيضا بطيب أرضه حتىأن الفدان يحصل منه ثلاثون أردبا من الحبوب كالقمح والشعير والذرة وغيرها

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٧ ـ ٢٧ •

كما امتاز أيضا بطيب المرعى الذى ترتب عليه طيب لحم الحيوان ولذته ، وشتاؤه طيب الاقامة مخصب كثير الألبان طيب البقولات (١) .

وقد اكتشف في هذا الاقليم كثير من المعادن مثل الذهب والحديد والفوسفات والبرام التى يشير اليها الادفوى بقوله معدن البرام (٢) وهى الطينة الطفلية التى تتوفر فى الأقصر وقوص وقنا التى يصنع منها البرام والقدور التى تستخدم فى الشئون المنزلية ويشير ابن الكندى الى انه قد تم اكتشاف النفط بهذا الاقليم فى سنة ٨٤٠ هـ (٣) ومن أحجاره الكريمة التى تم الحصول عليها فى ذلك الوقت الزمرد والياقوت والزبرجد والرخام .

ولا ينبغى أن يغيب عن ذهننا أن هذا الاقليم بالرغم من هذه المحاسن التى أوردها الادفوى كانت له مساوئه أيضا فصيفه حار قائظ كثير الحشرات كالذباب والبراغيث (٤) التى تقلق مضاجع أهله بجانب كثرة الهوام أيضا كالعقارب والثعابين والسام الأبرص وكلها هوام وحشرات سامة قاتلة ، وذلك ما ذكره كثير من المؤرخين الذين سبقوا الادفوى فى حديثهم عن هذا الاقليم .

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣ .
(٣) نقلا عن على باشا مبارك الخطط جـ ١٢ ص ١٢٨ .
(٤) على باشا مبارك : الخطط جـ ١٤ ص ١٣٨ .

ولعل من أبرز الصفات التي كان يتحلى بها هذا الاقليم فى ذلك الوقت استتباب الأمن فيه ، فقد كان الانسان يسير فيه ليلا ومعه ما شاء فلا يجد من يعترضه ، ويروى الادفوى أنه قد ركب مرة وأمسى الليل عليه وهو بمفرده فلم يجد من يعترضه فربط دابته فى حجر ونام فى أمن وهدوء (١) .

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٩ .

القبائل العربية التى سكنت هذا الاقليم منذ الفتح العربى حتى أواخر حكم الأيوبيين

لكى نتحدث عن القبائل العربيـة التى استقرت فى هذا الاقليم منذ أوائل الفتح العـربى ، يجدر بنا أن نقف قليلا أمام حالة مصر قبل الفتح ، فقد كانت مصر قبل الفتح العربى لها ولاية رومانية يسكنها القبط ، والقبط هذه كلمة يونانية قديمة معناها سكان مصر الذين هم من سـلالة قدماء المصريين يتكلمون اللغة القبطية المتطورة عن اللغة المصرية القديمة ، وبجانب هؤلاء نرى طائفـة من اليهود ثم الرومان وهم حكام مصر الذين أذاقوا المصريين الوانا من العنت والاضطهاد والمذلة حتى أنهم أصبحوا يتطلعون فى لهفة بالغـة الى من يخلصهم من ربقة هذا الظلم والطغيان حتى كان الفتح العـربى لمصر ١٨ هـ ٦٤٠ م بقيادة عمرو ابن العاص ووجد المصريون فى هؤلاء العرب المسـلمين ضالتهم المنشودة خصوصا وأنهم قد سمعوا عن حسن معاملتهم وتسامحهم مع أهل الشام فاقبلوا عليهم وفتحوا لهم قلوبهم ، وبدأ الدين الاسلامى واللغة العربية يأخذان

طريقهما في سهولة ويسر بين كافة أبناء الديار المصرية الا أن هناك من أبناء مصر من بقى على دينه ولم يتعرضوا من جانب المسلمين لعنت أو أذى بل عاملهم المسلمون معاملة تتسم بطابع التسامح والمحبة وأطلقوا عليهم أهل الذمة أو الذميين ، والتزموا بدفع الجزية فكفلوا لهم حرية عباداتهم ومعيشتهم (١) .

وهؤلاء المسيحيون كانوا يكثرون في قوص والأقصر واسنا ، والدليل على ذلك أن هذه المدن كانت مليئة بالكنائس والأديرة والقلايات (٢) التي أقامها المسيحيون منذ فجر المسيحية .

وحينما تم فتح العرب لمصر بدأت القبائل العربية تزحف على مختلف مدن الديار المصرية عن طريق صحراء سينا وعن طريق واد في جنوب صحراء مصر الشرقية يقال له وادى العلاقى ويسميه المؤرخون العرب (أرض المعدن) لكثرة ما به من المعادن كالتبر والذهب والزمرد التي كانت مطمعا لعدد كبير من القبائل في الحجاز واليمن

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٢٩٣ - ٣٢١ .

(٢) القلايات : جمع قلايه وهي مجمع أكابر الرهبان وعلماء النصارى .

فانطلقت هذه القبائل بعائلاتها وذراريها تبحث عن هذه المعادن وتنقب عنها ثم استقرت بالقرب من أماكنها •

وفى عصر الدولة الفاطمية بصفة خاصة امتد زحف هذه القبائل عن طريق الحجاز عيذاب ثم الحجاز القصير وذلك لسهولة هذه الطرق وسلامتها ، فاتجهت هذه القبائل فى زحفها لتقيم فى صعيد مصر لكثرة خيراته وطيب المعيشة فيه حينما تقطعت بها سبل الاقامة فى ديارها التى تركتها • ولقد كان للفاطميين حينما فتحوا مصر أثر كبير فى هجرة جموع غفيرة من القبائل العربية والقبائل البربرية المستعربة ، فمن المعروف أن الفاطميين قد اعتمدوا فى تأسيس دولتهم فى بلاد المغرب على هذه القبائل ، وكان فى جيشهم فرق عديدة منهم ، وحينما فتح جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٨ كان من الطبيعى أن ينتقل الى مصر حشد من هذه القبائل بانتقال الفاطميين اليها ، ولهذا يعتبر العصر الفاطمى مرحلة من المراحل الهامة فى تاريخ الهجرات المغربية الى مصر عن طريق الصحراء الكبرى ولقد تأثرت الجهات القريبة من صعيد مصر بتيار زحف هذه القبائل العربية والمستعمرية اليها (١) •

---

(١) المقريزى : البيان والاعراب عما حل بأرض مصر من أعراب • تحقيق ونشر عبد المجيد عابدين ص ١٣٢ ـ ١٣٣ •

وكان من أهم هذه القبائل التى سكنت الصعيد عموما بنو هلال الذين كانوا يقطنون الحجاز واغلبهم استقر فى أسوان ، وبلى وهى قبيلة عظيمة كانت تقطن الشام ثم زحفت الى مصر واستقر أغلبها فى الصعيد ، وكان عليهم الاعتماد فى نقل التجارة الهندية . وجهينة وهى من قبائل الحجاز العظيمة ، وقد كانت منازلهم فى الينبع ويثرب وقريش وبنى سليم وكانت مساكنهم فى نجد وقبيلة البجة وهى احدى القبائل البربرية المستعربة التى صحبت الفاطميين الى مصر واستقرت فى الجزء الجنوبى من الصعيد ، ومن أهم بطونها العبابدة والبشارية الذين يعيشون فى الوقت الحاضر معيشة البدو الرحل ويشتغلون بتربية الماشية والأغنام ويكثرون فى الصحراء الشرقية فى المناطق الواقعة من أسوان حتى بلاد النوبة والجعافرة الذين ينتسبون الى جعفر الطيار ويكثرون فى ادفو ودراو وأسوان . بنو شيبان هم أهل مكارم نزلوا قفط الطود وبنو اللمط بقوص والأشراف الحمامزة الذين ينتسبون الى الأمير جمال الدين جماز وهو شريف حسينى كان أميرا بالمدينة المنورة ثم زحف الى الديار المصرية فى أواخر حكم الأيوبيين واستقر بقنا . والهوارة وهم ينتسبون الى عرب الحجاز ، ومنهم من يقول ان أصلهم بربر من المغرب ، وعرب الحمدات استقروا أيضا بقنا والاشراف الحجاجية الذين ينتسبون الى سيدى يوسف أبى الحجاج الاقصرى الشريف الحسينى العراقى

الأصـل ، وقد اسـتقروا فى الأقصر وقوص والكلاحيين والرواجح وعرب حجازة وأولاد عمر وبنو حامد والانصار وغيرهم كثيرون قد استقروا فى أنحاء متفرقة من اقليم قوص (١) .

بجانب هذه القبائل العربية المتعددة كانت هناك أسر وعائلات مختلفة تمر بأغلب مدن الصعيد فى طريقها الى بلاد المشرق أو المغـرب فى تجاراتهـا المختلفة ، أو فى ادائها لفريضة الحج ، استهوتها مدن الصعيد هذه لطيب الاقامة فيها وكثرة خيراتها ووداعة أهلها وحسن معاملتهم فاستقر على أثر ذلك بعض هذه الاسر والعائلات فى ربوع الصعيد المختلفة واستوطنتها ، فنحن نقرأ فى كتب التاريخ والطبقات وبصفة خاصة فى الطالع السعيد للأدفوى عن كثير من هذه العائلات والأسر التى انتسبت الى بلاد من المشرق أو من المغـرب كسبته والمهدية وقرطبة والقيروان وفاس وبغداد وسهرورد وسـمرقند ونصيبين ومكة والمدينة ودمشـق وعسقلان وغيرها ، تتردد النسـبة اليها فى أرض الصعيد حتى أننا نقرأ أو نسمع أيضا عمن

---

(١) لافايت (مستشرق فرنسى) دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة الصعيد . ترجمة الأستاذ صبحى المقريزى . البيان والاعراب فى صفحات متفرقة زامباور معجم الانساب ص ١٠٣ عمر رضا كحالة معجم القبائل العربية مصطفى كامل شملول عروبة مصر من قبائلها . محمد عبده الحجاجى : شخصيات صوفية فى صعيد مصر فى العصر الاسلامى (توطئة) .

يسمى بالقرطبى القنائى أو السبتى القوصى أو القيروانى الاسنائى أو العسقلانى الادفوى وما الى ذلك . وكل هؤلاء فى الواقع ينتسبون الى قبائل عربية أو مستعربة استقرت فى هذه المدن وسواها حتى وفاتها ، وكان نتيجة لكل ذلك ان تناكحت هذه القبائل والاسر والعـائلات فيما بينها وتناسلت وأعقبت خلفا صالحا مازال ممتدا حتى يومنا هذا .

وقد لعبت هذه القبائل دورا هاما فى القضاء على الفتن والدسائس والمؤامرات التى عرضت سياسة الدولة الداخلية للتفكك والانهيار وكادت أن تأتى عليها ، فتقول مصادر التاريخ المختلفة ان قبيلة ربيعة بن نازار بن عدنان الذين اتخذوا من مدينة أسوان فى أقصى الجنوب مقرا لهم قد تعاونوا معاونة صادقة مع الخليفة الفـاطمى الحاكم بامر الله فى القبض على الثـائر الأموى الاندلسى أبى ركوة ، وكان قد لجـأ الى الصعيد وهم بالفـرار الى بلاد النوبة ، فسر الحاكم بأمر الله وكافأ زعيم هذه القبيلة بأن أطلق عليه لقب كنز الدولة وهو لقب من الالقاب التى كان يمنحها عادة الحكام لهؤلاء الذين تزكو عنـدهم روح الجهاد والتضحية والفداء وقد توارث أبناؤه من بعده هذا اللقب فعرفوا ببنى الكنز أو الكنوز (١) .

---

(١) المقريزى : البيان والاعراب ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

بجانب أنه كان لهذه القبائل أيضا بأسها الشديد وانتفاضاتها التي كثيرا ما أقلقت مضاجع مختلف حكام مصر حتى أن هؤلاء الحكام كانوا يخشونهم ويخافونهم ، فلقد شهد الصعيد بصفة عامة واقليم قوص بصفة خاصة ثورة عارمة اشتركت فيها بعض هذه القبائل العربية في سنة ٦٩٨ هـ ـ ١٢٩٨ م في عهد السلطان الناصر قلاوون، والسبب فيها هو أن هذه القبائل نظرت الى سلاطين المماليك نظرة استخفاف واصغار لانهم ليسوا عربا وأنهم مغتصبون للحكم في مصر ، فلبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون والمعتقلات وسموا بأسماء الأمراء ، وجعلوا لهم كبيرا سموه سالار والآخر بيبرس فقطعوا الطرق وفرضو الضرائب على التجار وأرباب المعاشات وانتهى أمر ذلك الى السلطان الناصر قلاوون فاستشاط غضبا وأحضر الأمراء والقضاةوالفقهاء واستعانهم فيأمر مقاتلتهم فآمنوا بجواز ذلك ووضعت لذلك خطة محكمة اشترك فيها الأمرا وولاة الأقاليم فمنعوا السفر الى الصعيد في البر والبحر وأمروا بوضع السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير فطوق هؤلاء الأمراء والولاة ومن ساعدهم من الجند ببلا الصعيد على هؤلاء المتمردين وأخذوا عليهم المفازات ، وق عميت أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد ووضعو السيف ، كما أمروا في الكبير والصغير والجليل والحقي وأخذوا الأموال وسبوا الحريم ، وكان اذا ادعى أحد مر العربان أنه حضري قيل له قل دقيق فاذا قال (دقيق بالكاف

من لغات العرب) قتل وان قالها بالقاف المعهودة أطلق سراحه ووقع الرعب والخوف فى القلوب وأخذوا من كل جهة فروا اليها وأخرجوا من مخابئهم وقتلوا من العربان ما وسعهم القتل حتى جافت الأرض بهم واختفى كثير منهم بمفاوز الجبال ، فتعقبهم الأمراء والولاة وأوقدوا عليهم النيران حتى أهلكوا وأسر من فر منهم ، وقد خلت على أثر ذلك بلاد الصعيد من أهلها بحيث يمشى الرجل فلا يرى الا النساء والصبيان ، ثم أفرج السلطان عن المأسورين وأعادهم الى بلادهم لحفظ الأمن (١) .

ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن هذه القبائل العربية كانت تجرى فى دماء أبنائها الخصال العربية الحميدة كالجود والكرم والتضحية والشهامة والفداء فقد وردت كثير من المواقف والبطولات التاريخية فى كثير من كتب التاريخ تعبر عن هذه المعانى تعبيرا صادقا أكيدا فيقول المقريزى مثلا (أن الرجل كان فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها يمر من القاهرة الى أسوان فلا يحتاج الى نفقة بل يجد فى كل بلد وناحية دور الضيافة فاذا دخل دارا منها أحضر لدابته علفها وجيء له

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى حوادث سنة ٦٩٨ .

بما يليق به من الاكل ونومه (١) فلقد كانت دور الضيافة التى تدل على الكـرم والجـود منتشرة فى كل ركن من أركان الصعيد يجد فيها المسافر والوافد واللاجيء زاده وأمنـه وراحتـه ، وهذه فى الواقع طباع وصفات عربيـة أصيلة تجـرى فى دماء أهل الصعيد ، وما زالت تمتد حتى يومنا هذا) ٠

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٧ ٠

الفصل الثانى

قـــوص

- الموقع الجغرافى : تسميتها بهذا الاسم - لماذا اختيرت عاصمة الصعيد - وصفها كما جاء على لسان أبنائها من شعراء وعلماء ومؤرخين .

- قوص من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب خلال هذه الفترة .



الموقــع الجغرافى ـ تســـميتها بهذا الاســـم ـ لماذا اختيرت عاصمة الصعيد ـ وصفها كما جاء على لبســـان ابنائها من شعراء وعلماء ومؤرخين .

تقع مدينة قوص على الساحل الشرقى من النيل في مسافة قدرها ٦٤٥ كم جنوب القاهرة ، وهى الآن من المراكز الهامة في محافظة قنا ، وقد ضبط المؤرخون الذين تحدثوا عنها اسمها بضم القاف ثم السكون وصاد مهملة والنسبة اليها قوصى (١) وقد اختلف فى سبب تسميتها بهذه التسمية فمن قائل أنها سميت باسم رجل يقال له قوص بن قفط بن أخميم بن ســـيقاف بن أشمن بن منف (٢) ومن قائل انها سميت باسم قوص بن سيفاف بن أشمن بن مصر (٣) والقول الراجح هو أن قوص كلمة قبطية بمعنى الكفن أو الدفن وقد سميت كذلك لأن أهلها كانوا مهرة فى دفن الموتى وتكفينهم (٤) .

(١) السمعانى : الانساب ص ٤٧٠ .
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٣ ـ ١٤ .
(٣) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار جـ ٥ ص ٢٩ .
(٤) ابو صالح الارمنى : ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

وقوص هذه مدينة قديمة كان بها منذ عهد البطالمة معبد بطلمى مشهور بناه بها ثانى حكامهم ، وقد ذكر بعض المؤرخين كثيرا من القصص حول بناء هذه المدينة وتأسيسها ، منها أن شدات بن عديم سادس ملوك الطوفان بناها لابن له كان قد سخط عليه وعلى أمه فأقطعها لهما وأسكن عندها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعة (١) .

وقد بدأت قوص الاسلامية فى العمارة سنة ٤٠٠ هـ – ١٠٠٩ م بعد أن خربت قفط التى كانت عاصمة للصعيد فى عصور الاسلام الاولى (٢) وأخذت فى التقدم والازدهار حتى أنها اختيرت عاصمة للصعيد فى عهد الأيوبيين وذلك بحكم توسط موقعها الجغرافى بين بلاد المشرق والمغرب فهى كما يقول أكثر المؤرخين باب مكة واليمن وسواكن والباله (٣) اى أنها بذلك أصبحت مركزا من المراكز الهامة التى كانت تربط مصر من الجنوب بهذه المدن وسواها فى آسيا وشرقى افريقيا .

وقد ساعدها موقعها الجغرافى هذا أن تصبح طريقا للحج يمتاز بالهدوء والأمن والاطمئنان فى الوقت الذى فيه كانت تدور معارك الحروب الصليبية فى المنصورة والاسكندرية ودمياط ورشيد نضيف الى كل ذلك أنها

---

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ ٥ ص ٢٩ .
(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ص ١٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤ .

قد اتخذت فى عصر الايوبيين والمماليك قاعدة لنشر مذهب السنة والقضاء على مذهب الشيعة الذى بدأ يتغلغل فى أغلب مدن الصعيد . كل هذه العوامل مجتمعة كانت سببا فى اختيار قوص عاصمة للصعيد منذ عهد الدولة الفاطمية حتى أواخر حكم المماليك وكانت سببا أيضا فى أن يرتبط بها الكثير من أهل العلم والتجار وأرباب المعاشات ، وقد جرى ذكرها وذكر محاسنها على لسان من ارتبطت حياتهم الأولى بها من شعراء وعلماء وأدباء ، فقد ذكرها فى كثير من شعره البهاء زهير الشاعر المعروف الذى عاش صدر حياته بها وكان يعمل فى خدمة السلطان مجد الدين ابن اللمطى أحد أمراء قوص فى زمنه ، وكذلك أحمد بن ناشىء القوصى وتاج الدين الدشناوى والادفوى الذى قال فيها :

أنزل بقوص فانما
هى منزل الفطن الحكيم
واشرب ميـاهـا قد أتت
من طيب جنات النعيم
رقت وراقت فاحسها
ياصاح فى الليل البهيم
وانشق شذا عرف الريا
ض يفوح مع لطف النسيم

وانظـــر الى جـــرى الجــدا
ول فى المفـــارط (١) والــكرم
حكت الجنـــان بمـــا حـــوت
حســـا وبالوجـــه الوسـيم

ما العيش الا مـــا مضـــــى
لى فى رباهـــا من قـــديم (٢)

فالادفوى من خلال قصيدته هذه أعطانا صورة عن مدينة قوص فى زمنه أى فى عصر المماليك وهى أنها كانت منزل الفضلاء والحكماء وأن ماءها عذب فرات قد أتى على حد تصوره من جنات النعيم وانها عبقت الارجاء بشذى عطر رياحينها وأن جداول الماء تجرى فى بســـــاتينها وكرومها فأكسبها كل ذلك جمالا وبهاء وحسنا ، ونضيف الى هذه الصورة أيضا ما جاء على لسان العالم الفقيه مجد الدين القشيرى حينما نصح أحد طلبة العلم بالسفر الى قوص للدراسة فى مدارسها وقد تذرع هذا الطالب بجوها وحرارتهـا فقال له أين أنت من طيب فاكهتهـا وعطـرية رياحينها (٣) .

---

(١) المفارط : الحدائق والبساتين .
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٥
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٧ .

كل هذه المحاسن والصفات التى كانت عليها قوص فى ذلك الوقت قـــد رغبت وحببت الـــكثير من الامراء والسلاطين أن يفدوا اليها فى فراغهم ليقضوا بها وقتـــا طيبا ، فالسلطان قلاوون كان يتحين الفـرص للســفر الى قوص هو وبعض من أفردا حاشيته للسياحة والاستجمام وصيد الغزلان التى كانت تكثر بصحرائها الشرقية (١) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حوادث ٧١٠ هـ

قوص من خلال كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب في العصر الاسلامى

لقد ورد الحديث عن قوص في كثير من كتب المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب خلال هذه الفترة وسوف نستعرض ما قاله هؤلاء عنها منذ عصر الدولة الفاطمية حتى أواخر حكم المماليك .

ففى عصر الدولة الفاطمية ٢٩٧ هـ ــ ٥٥٥ هـ (٩٠٩ م ــ ١١٦٠ م)

مر بها الرحالة الفارسى ناصر خسرو المتوفى ٤٨١ هـ ١٠٨٨ م وهو فى طريقه الى أسوان جنوبا ومنها الى بلاد المشرق فكتب عنها فى رحلته المعروفة بسفرنامه (١) : يقول : (ومن هناك بلغنا مدينة تسمى قوص رأيت فيها أبنيـة عظيمة من الحجارة تبعث على العجب وهى مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر وأكثر أبنيتها من الحجارة

(١) سفرنامه : كلمة فارسية بمعنى كتاب الرحلة .

الكبيرة التي يزن الواحد منها عشرين أو ثلاثين ألف «من»(١) والعجيب أنه ليس على مسـافة عشـرة أو خمسة عشر فرسـخا منها جبـل أو محجر فمن أين وكيف نقلوا هذه الحجارة (٢) .

ثم يأتي من بعده الجغرافي العربي المعروف الشريف الادريسي المتوفى ٥٦٠ هـ ١١٦٤ م يتحدث عن هذه المدينة في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق قائلا : (قوص بالجبهة الشرقيـة من النيل وهي مدينـة كبيرة بها منبر وأسواق جامعة وتجارات رابحة والبركات ظاهرة وشرب أهلها من ماء النيل وبها بطون طيبة وضروب من الحبوب كثيرة ممكنة ولحوم ثدقة (٣) حسنة المنظر لذيذة المأكل لكثرة نعمهـا كان هواؤها وبائيـا وأهلها مصفرة ألوانهم وقليل ما دخلها غريب وسلم من المرض الا نادرا (٤) .)

وفي عصر الدولة الأيوبيـة ٥٦٧ هـ ـ ٦٤٨ هـ ١١٧١ م ـ ١٢٥٠ م زارها الرحـالة المغـربي بن جبير المتوفى ٦١٣ هـ ١٢١٦ م

---

(١) من : مقياس ، الوزن = رطلين .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ، نقله من الفارسـية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب ص ٧١

(٣) ثدقة : أي كثيرة الدهن .

(٤) الادريسي : نزهة المشتاق ص ٤٩ .

ووصفها فى رحلته وصفا دقيقا فنراه يقول (وهذه المدينة حفيلة الاسواق متسقة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمن والهنديين وتجار الحبشة لانها محط للرحال ومجمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والأسكندرنيين ومن يتصل بهم ويفوزون بصحراء عيذاب واليها انقلابهم فى صدرها الى الحج (١) .) وفى معجم البلدان لياقوت الرومى المتوفى ٦٢٦ هـ ١٢٣٣ م أن قوص بالضم ثم السكون وصاد مهملة وهى قبطية أى أن قوص كلمة قبطية : مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، وهى قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوما ، وأهلها أرباب ثروة واسعة وهى محط التجار القادمين من عدن واكثرهم من هذه المدينة وهى شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية ، وبينها وبين فقط فرسخ (٢) وهى شرقى النيل بينها وبين بحر اليمن خمسة أيام أو أربعة (٣) .

وفى عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ هـ ـ ٩٢٣ هـ ١٢٥٠ م ـ ١٥١٧ م اتسع الحديث عن هذه المدينة عند كثير من مؤرخى هذا العصر فمن هؤلاء أبى الفدا ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م الذى يقول عن هذه المدينة فى تقويم بلدانه (.. قوص مدينة بالصعيد وليس بأرض مصر بعد الفسطاط

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) ياقوت الرومى : معجم البلدان ، مادة قوص .

مدينة أعظم منها وهي فرضة (١) التجار من عدن ، وهي على حافة النيل من البر الشرقي وفرضتقوص قصير بضم القاف وفتح الصاد المهملة ثم ياء آخر الحروفوراء مهملة ، والقصير ميناء على بحر القلزم وهي على ثلاثة أيام من قوص في مغازه (١) ولم يضف صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق في كتابه مراصد الاطلاع شيئا جديدا سوى انه ضبط اسمها وحدد المسافة بينها وبين الفسطاط وقال (قوص بالضم ثم السكون وصاد مهملة مدينة كبيرة عظيمة واسعة وهي قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوما وبينها وبين قفط فرسخ (٣) .

ثم يأتي الأدفوي صاحب الطالع السعيد الذي تحدث عن هذه المدينة حديثا مستفيضا في أكثر من موضع فوصفها وتغنى بها وتحدث عن مدارسها وفقهائها وعلمائها وأهل الرأي فيها ويشترك معه في الحديث عنها معاصر له هو ابن فضل الله العمري المتوفى ٧٤٩ هـ ١٣٨٠ م في كتابه مسالك الأمصار في ممالك الأمصار الذي يقول فيه (إن قوص أكبر مدينة بالصعيد وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن والحجاز بعد مرورها بصحراء عيذاب وفيها كثير من الفنادق والبيوت

---

(١) فرضة : طريق منحدر من وسطه وجانبيه

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٣) صفي الدين بن عبد الحق : مراصد الاطلاع جـ ٢ ص٤٢١ .

الفاخرة والحمامات والمدارس والبساتين والحدائق ومزارع الخضروات ، ويسكنها سائر أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء وذوو العقارات والأملاك ، وهواؤها فى غاية الحرارة) (١) .

وفى النصف الثانى من القرن الهجرى زارها الرحالة المغربى ابن بطوطه المتوفى ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م فوصفها قائلا (قوص بضم القاف مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساتينها مورقة وأسواقها مولقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة (٢) وهى منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين عبد الغفار وزاوية الأفرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين (٣) فى شهر رمضان من كل سنة ، ومن علمائها القاضى جمال الدين السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد العلماء والبلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من عائلته الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبى (٤) .

وقد تحدث عن هذه المدينة أيضا المؤرخ المصرى المعروف بابن دقماق المتوفى ٨٠٩ هـ ١٤٠٦ م فى كتابه

---

(١) نقلا عن على باشا مبارك : الخطط جـ ١٤ ص ١٣٨ .
(٢) الأثيرة : المحبوبة .
(٣) المتجردون : الصوفية .
(٤) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٢٩ .

الانتصار بواسطة عقد الامصار قائلا : (... أن هذه المدينة قديمة تعرف بقوص العالية بنيت في زمن شداث ابن عديم وهو السادس من ملوك مصر بعد الطوفان بناها لابن له كان قد سخط عليه وعلى أمه فبنى لهما هذه المدينة وحولهما اليها وأسكن عندها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات ، وهى على ضفة النيل الشرقى وهى الآن مدينة الاقليم بعد أن كانت مدينة الاقليم قد خرجت في سنة ٤٠٠هـ ١٠٠٩ م وبها الآن متولى الحرب السعيد وقاضى القضاة وقيل انها سميت بقوص بن شنفاق بن أشمن بن مصر وهى باب مكة واليمن والنوبة وسواكن والتاكة (١) وبهذه المدينة ستة عشر مكانا للدرس (٢) .

وفى حديث شهاب الدين القلقشندى المتوفى ٨٢٣هـ ١٤٢٠ م فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الانشا ما نصه (قوص بضم القاف وسكون الواو وهى مدينة جليلة على البر الشرقى من النيل ذات ديار فائقة ورباع أنيقة ومدارس وربط وحمامات يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال ولها البساتين والحدائق المستحسنة الا أنها شديدة الحر كثيرة العقارب حتى أنه يقيض لها من يدور فى الليل فى شوارعها بالمسارج لقتلها ، ويقاربها فى الكثرة

---

(١) التاكة : اختلف فى تسميتها فمنهم من يقول الباله
(٢) ابن دقماق : واسطة عقد الانصار جـ ٥ ص ٢٩ .

سام أبرص ، قال المقر الشهابي بن فضل الله العمري في مسالك الأمصار : أخبرني عز الدين حسن بن أبي المجد الصفتي أنه عد في يوم صائف على حائط الجامع بها سبعين سام أبرص (١) على صف واحد (٢) . ويقول عنها أيضا المقريزي المتوفى ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م في خططه (اعلم أن قوص أعظم مدن الصعيد وهي على النيل بنيت بعد قفط في أيام ملك القبط الأول ... وقوص كثيرة العقارب وبها صنف من العقارب القتالات حتى أنه كان يقال بها أكلة العقارب ، لأنه كان لا يرجى لمن لسعته حياة واجتمع بها مرة في يوم صائف على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا واحدا ، وكان الواحد من أهلها اذا مشى في الصيف ليلا خارج داره يأخذ بيده مسرجة تضيء له وبالأخرى مشك من حديد يشك به العقارب ، ثم أنها تلاشت بعد سنة ثمانمائة ، ولما كانت الحوادث والمحن مات بها سبعة عشر ألف انسان في سنة ست وسبعمائة وكانت من العمارة بحيث أنه تعطل فيها في شراقي البلاد سنة ست وسبعين وسبعمائة

---

(١) سام أبرص بتشديد الميم . قال أهل اللغة وهو من كبار الوزغ رقه ، سمي بذلك لأنه سم أي جعل الله فيه السم ومن شأن هذا الحيوان أنه اذ تمكن من الملح تمرغ فيه فيصير مادة لتولد البرص، راجع الجزء الثاني من كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري ص ١٣ ـ ١٤ (بتصرف) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا جـ ٣ ص ٤٠١

وخمسون مغلقا ، والمغلق عنــدهم بستان من عشرين فدانا فصاعدا وله ســاقية بأربعــة وجوه (١) . وقد أثبت ابن الجيعان في التحفة السنية أن مدينــة قوص ليس لها طين أي أنه ليس لها أراض زراعية (٢) .

من كل ما جاء على لسان هؤلاء المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب في وصف مدينة قوص يتضح لنا أن هذه المدينة أخذت في العمران والتقدم منذ عصر الدولة الفاطمية ثم بلغت قمة مجدها وشهرتها حتى أنها عدت من أعظم مدن الصــعيد في عصر المماليك ، وذلك واضــح ملموس في وصف مؤرخي هذا العصر لها وسوف نتتبع هذه المدينــة منذ عصر الدولة الفاطمية حتى عصر سلاطين المماليك .

ففي عصر الفاطميين زارهــا الرحــالة ناصر خسرو وكانت حديثــة النشــأة والتكوين فقد ورثت قفط بعــد خرابهــا ســنة ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م كما أشــار الى ذلك أغلب المؤرخين وقد كانت من أهم معالمها آنذاك معبد بطلمي أقامه أحد حكام البطــالمة يتكون من ســور عظيم ومبــان حجرية ضخمــة أثارت في نفس الرحــالة الفــارسي ناصر خسرو الدهشة والعجب فاندفع مبهورا ، يقدر وزن الحجر منها بعشرين أو ثــلاثين ألف أي ما يقــــرب من ثمــانين

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ١٢ ص ٣١١ .

(٢) ابن الجيعان : التحفة الســنية بأســماء البلاد المصريــة ص ١٩٠ .

ألف رطل أو ثمانمائة قنطار ثم تأخذ هذه المدينة في النمو والاتساع والتقدم شيئا فشيئا فجددت عمارة جامعه العامري الذى أسس فى أوائل الفتح العربي وأنشىء به منبر فريد على الطراز الفاطمي الذى شاهده الشريف الادريسى ، ثم كثرت بها الأسواق وراجت تجارتها وامتدت بها أسباب النعيم ورغد العيش الذى تمثل فى كثرة خيراته من حبوب وبقول ولحوم سدقة أى كثيرة الدهن حسنة المنظر لذيذة الطعم ، مما يدل على أن قوص كانت بها مراع شاسعة للأغنام والماشية أعطت نتاجا حسنا فى العصر الفاطمى .

وفى عصر الدولة الأيوبية بعد أن سيطر الصليبيون على الشمال اكتسبت قوص على أثر ذلك مكانة مرموقة فقد تحول الطريق اليها من المشرق الى المغرب بحكم موقعها الجغرافى ، وأصبحت بذلك محط التجار وملتقى الرجال . فكثر الداخل فيها والخارج منها من تجار وحجاج يحملون جنسيات مختلفة من اليمن وعدن والحبشة وبلاد المغرب فترتب على ذلك أن نشطت قوص نشاطا ملحوظا فى نواحى الحياة الاقتصادية ، كما أشار الى ذلك مؤرخو هذا العصر .

وفى عصر سلاطين المماليك الذين امتد حكمهم لمصر أكثر من قرنين ونصف بلغت هذه المدينة قمة مجدها وشهرتها فى شتى نواحى الحياة ، فقد ازدهرت فيها الناحية الثقافية بصفة خاصة حيث أنشئت بها ست عشرة

مدرسة استقبلت وفودا من طلبة العلم والمعرفة من مختلف الجنسيات كما توافد عليهـا العلماء والخطباء ورجـال الصوفيـة من المشرق والمغرب ، ومر بهـا أيضا الحجاج السكندريون والمغـاربة في رواحهم وغدوهم من الأراضي الحجازية ، واتخمت أسواقها بمختلف البضـائع وتمرس أهلها التجارة وخبروا فن المعاملات فأثروا على أثـر ذلك ثراء فاحشا مما ترتب عليه أن تغير طابع المدينة ومظهرها الخارجي . فأنشئت بها الحصـون المنيعة والفنادق والخانات والحمـامات وأحواض السـبل بجـانب الربط والزوايا والمساجد العامرة ، وكانت تحيط بكل هذه المنشآت والمباني في الأغلب الأعم البساتين التي كانوا يطلقون عليها في ذلك الوقت المغالق وقد كان كل بستان مساحتـه من عشرين فدانا فصـاعدا وعليه ساقيـة تمده بالماء بأربعة وجوه . ولا شك أن هذه البساتين قد أكسبت قوص حسنا وجمالا كما أنها أغدقت على أهلها الخيرات والأرزاق بقطوفهـا الدانية .

ولا ينبغي أن يفوتنا أن قوص كانت في عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة تتمتع بمكانة عظيمة في الناحيـة الحربية فقد أنشئت بها سكنات عسكرية تضم آلافا من الجنود من أبناء اقليم قوص بجانب المماليك السلطانية الذين كانوا يتمركزون في قوص العاصمة ، وكان يشرف على هذه الأعمال الحربية وتجهيز الجنود للغزو حسب أوامر السلطان

متولى الحرب السعيد الذى يشبه فى عصرنا الحالى القائد العام ويتخذ من قوص مركزا له كما يقول ابن دقماق •

وقد ازدادت أهميتها بصفة خاصة فى عهد السلطان قلاوون الذى جعل منها قلعة حربية بحكم موقعها الجغرافى بين بلاد المشرق والمغرب تنطلق منها الجنود لاخضاع الثوار في بلاد النوبة أو الغزو بلاد اليمن، ففى سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٧ م انطلقت الجيوش من قوص لكبح جماح ملك النوبة (سمانون) الذى تمرد على السلطان قلاوون ، فسار الجيش من قوص وعلى رأسه المماليك السلطانية المتمركزين بالأعمال القوصية واجنـــاد مركز قوص وعربان الاقليم وهم أولاد أبى بكر وأولاد عمرو وأولاد شريف وأولاد شـــيبان وأولاد الكنـز وبنى هلال وغيرهم وكان أن انهزم ملك النوبة سمانون وقتل الكثير ممن معه (١) •

كما أنه فى سنة ٦٩٢ هـ ١٢٩٢ م اتجه السلطـان قلاوون شخصيا الى مدينـة قوص ونادى منهـا بالتجهيز لغزو اليمن (٢) •

بالاضافة الى كل ذلك فان مدينة قوص قد ساهمت مساهمة فعالة فى بناء الاسطول المصرى فقدمت فى ذلك الصناع

---

(١) المقريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك جـ ١ قسـم ٣ ص ٧٣٧ •

(٢) المصدر السابق : حوادث ٦٨٦ الى ٦٩٢ •

والفنيين المهرة فى بناء السفن بجانب خشب السنط الذى كان يكثر بهـــا والذى يعتبر دعامة قوية فى صـــناعة الاسطول (١) ٠

كما أن هذه المـدينة كانت منفى لارباب الجـــرائم والمشاغبين والمناوئين للحكام في مصر وقد ظهرت ميزة قوص كمنفى لهؤلاء في عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة ، فقد نفى اليها كثير من خلفاء العباسيين والأمراء ، فقد نفى السلطان الناصر لدين الله قلاوون فى سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م الخليفة العباسى المستكفى بالله أبو الربيع سليمـــان مع أولاده وكانوا قريبا من مائة نفس وظل بها هذا الخليفة الى أن توفى سنة ٧٤٠ هـ ١٣٣٩ م ودفن بها كما نفى اليها أيضا المنصور أبى بكر ابن السلطان قلاوون الذى تولى الحكم سنة ٧٤١ هـ ١٣٤٠ م وخلع فى العشر الأخير من شـــهر صفر سنة ٧٤٢ هـ ١٣٤١ م لفساده وشربه الخمر حتى قيل انه أتى زوجات أبيه وهتكت حرم أبيه الناصر قلاوون وكثر البكاء والعويل بالقاهرة ، ثم قتل بقوص ، كان ذلك مجـــازاة لما فعـــله والده الســـلطان قلاوون بالخليفة المستكفى بالله (٢) ٠

لكنه بالرغم من كل هـــذه الخيرات والطيبـــات والمحاسن والمميزات التى كانت تتمتع بها قوص خلال هذه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١٠ ٠
(٢) على باشا مبارك : الخطط جـ ١٤ ص ١٣٠ ٠

الفترة التي نؤرخ لها الا أنها قد تعرضت لألوان شتى من المحن والشدائد والمجاعات التي اجتاحت البلاد ففي سنة ٦٧٦ هـ ٣٧٧ وسنة ٧٠٦ هـ ١٣٠٦ م بسبب تقاصر النيل أصاب الناس لباس الخوف والجوع ونقص في الأنفس والثمرات • بجانب أن فساد هوائها وشدة حرارتها في فصل الصيف كان من العوامل التي ساعدت على تفشى الأوبئة بها واصابة أهلها بكثير من الأمراض كاصفرار ألوانهم وبدانة أجسامهم ، حتى أنك تستطيع أن تميز القوصي من غيره بوجهه المصفر وبدانة جسمه ، ونادرا ما دخلها غريب وسلم من أمراضها وذلك ما قاله الشريف الادريسي •

وقد كان من مساوىء فصل الصيف بها أيضا كثرة العقارب والهوام ، فمما هو جدير بالملاحظة في وصف أغلب مؤرخي عصر المماليك أنهم قد أجمعوا فيما كتبوا عنها أنها كثيرة العقارب والهوام فقد عد في يوم صائف بها على حائط الجامع سبعون سام أبرص وهو نوع من الهوام القاتلة التي تعرف عند العامة في قوص (بالوزغ) فقد كان الشخص اذا خرج من بيته ليلا في فصل الصيف يصطحب معه مسرجا أى مصباحا ومشكا من حديد يشك به العقارب التي تقع في طريقه ، وقد كان بقوص في ذلك الوقت قوم لهم معرفة ودراية تامة بصيد هذه الهوام وتخليص الناس منها ، وذلك بواسطة عزائم وأقسام مجردة يقرأونها عليها فتقف في مكانها لا تبدى حراكا

وتكف عن الأذى أو كانوا يقرأون عليها هذه العزائم ويسلطونها على من شاءوا ومتى شاءوا فتتبعهم بكل جهدها ولا ترجع عنهم الا اذا أمرت بالرجوع ٠

وقد حدث أن أحد ولاة قوص في عهد الناصر قلاوون أوقف ذات مرة امرأة لها خبرة واسعة في مثل هذه الأمور وكانوا يطلقون عليها الساحرة أو الحاوية وأمرها أن تريه شيئا من عجيب صنيعها فأخبرته أن سرها الأكبر هو أن تسحر العقارب وتحركها كما شاءت فاذا ذكرت لها شخصا مشت اليه ولا تتعداه فتلدغه وتهلكه ، فقال لها أرني ذلك وجربي في فأتت بعقرب وتلت عزائمها عليها ثم أطلقتها فانطلقت وراءه وهو يهرب منها بجهات شتى حتى كادت تلدغه فهرب منها وجلس على كرسي وسط حوض مملوء بالماء فوقفت على حافته تراود نفسها في خوضه ثم جرت على الحائط ومشت على السقف حتى صارت موازية لرأسه ثم رمت بنفسها فسقطت بالقرب منه وقصدته فبادرها بضربة فقضت عليها في الحال ، ثم أمر بقتل هذه المرأة فورا وتخليص الناس من شرها (١) ٠

---

(١) على باشا مبارك : الخطط جـ ١٤ ص ١٣٢ ٠



الفصل الثالث

بناء المجتمع القومى فى العصر الاسلامى

الطبقـات

طبقة الولاة والحكـام ـ القضـاة ـ العلمـاء والفقهاء ـ التجار ـ الصناع والحرفيون ـ الفلاحون وعامة الشعب ـ النصارى ـ الاقليات الأجنبية ـ المرأة ومدى نشاطها .

بناء المجتمع القوصى فى العصر الاسلامى

كان مجتمع قوص فى العصر الاسلامى يعتبر من أهم المجتمعات بالنسبة لسائر مجتمعات مدن الصعيد ، وذلك لأن مدينة قوص ـ كما سبق أن قلنا ـ كانت العاصمة ومقر الولاة والأمراء والحكام وبناء على ذلك فقد تمثلت فى بناء مجتمع هذه المدينة عدة طبقات وهى : طبقة الولاة والحكام ـ القضاة ـ العلماء والفقهاء ـ التجار ـ الصناع والحرفيون ـ الفلاحون وعامة الشعب ـ النصارى ـ الاقليات الأجنبية ـ المرأة ومدى نشاطها فى هذا المجتمع •

طبقة الولاة والحكام :

وهم الذين فى أيديهم زمام السلطة الادارية فى هذا الاقليم وكانوا يلقبون بألقاب كثيرة منها : الأمير أو الوالى أو متولى الحكم ، ويعينون من قبل سلطان مصر بموسوم يسمى المرسوم السلطانى •

وكان والى قوص يعتبر من أهم ولاة الديار المصرية وذلك لمكانة هذا الاقليم وأهميته ، فقد كان يتمتع

حاكم هذا الاقليم بامتيازات قل أن يتمتع بها سواه من أمراء وحكام الأقاليم الأخرى ، منهسا أنه كانت تكاتبه ثلاثة ملوك (١) وأنه كان فى تحركاته الرسمية يركب بالشبابة السلطانية أى الموسيقى السلطانية (٢) .

وكان نظام اللامركزية هو النظام المعمول به فى الديار المصرية فى زمن الايوبيين والمماليك ، أى أن أمير أو والى الاقليم له مطلق التصرف فى شـــئون اقليمه من حيث التنظيم واختيار الموظفين الاداريين الذين يتولون معاونته فى شئون ادارة اقليمه ، وهم الذين كان يطلق عليهم فى ذلك الوقت أرباب الوظائف الديوانيــة ، ويشترط فيهــم الصدق والأمانة والنزاهة والعفة بجانب الدراية الواسعة بالعلم والفقه ، فمن هؤلاء من كان يتولى جبــاية الخراج والتفتيش على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل وضبط التجار المختلسين والغشاشــين . ثم يأتى بعــد ذلك دور أرباب الأقلام وهم فئة معينة تتولى الرد على الرســـائل السلطانيــة والمكاتيــات الرســـمية لابد أن تتوافر فيهم الدراية التــامة بفنون الأدب حتى يتسنى لهــــم تــدوين الرسائل بأسلوب جزل اللفظ قوى التعبير .

ولما كانت قوص مركزا من أهــم مراكز البريــد فى الديار المصرية يصلها البريد من قلعة الجبل المحروسة ثم

---

(١) ابن دقماق جـ ٥ ص ٢٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٦ .

يوزع منها الى جهة أسوان وبلاد النوبة وجهة عيذاب وسواكن (١) استوجب ذلك أن يكون بهـا ناظر للبريد يتولى الاشراف على تنظيم هذه العملية ويعاونه فى ذلك البريديون ، وهؤلاء يخضعون لاشراف والى قوص كما أنه كانت هنـاك ادارة أمن قوية تتكون من العسس أى الشرطة وتتولى المحافظة على أرواح الناس وأموالهم وتقوم بالقبض على الفارين والهاربين والمجرمين ، ولوالى قوص ممثلون له فى مدن اقليمه يتولى تعيينهم وعزلهـم يطلق عليهم أمين الحكم أو متولى الحكم . ويقيم الوالى فى مقر ولايته أى قوص ويتعين عليه أن يتجول فى مختلف مدن اقليمه كى يشرف بنفسه على حسن سير الأمور ويراقب الموظفين ويحاسبهم على أعمالهـم فيكافىء من يسـتحق المكافأة ويوقع الجزاء على المهمل المتقاعس ، وقد كان لكثرة خيرات هذا الاقليـم وأهميته أثر كبير فى أن يتكالب على تولية امارته الكثير من الولاة والأمراء ويفخرون بذلك على سائر ولاة الأقاليـم . ومن أشهر هؤلاء الأمراء والولاة الذين تولوا امارة هذا الاقليم ابن الرفعة ، وابن هبة الله النجيب وعلاء الدين الخازندار والأمير مجد الدين بن اللمطى وشاور السعدى وسيف الدين سالار وغيرهم كثيرون قد أشار اليهم الادفوى فى الطالع السعيد فى تراجم مختلفة .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٧١ .

فمن هؤلاء الولاة من كان يرى الله في أفعاله فلا يظلم الناس شيئا بل يصنع الخير ويهب العطايا وينفق في وجوه البر والاحسان الشيء الكثير ، حتى أنهم قد تركوا بأفعالهم الحسنة هذه انطباعات قوية على وجه مجتمع قوص تجلت في انشائهم للمساجد والمدارس والربط والزوايا التي خلدت أسماءهم من بعدهم .

ومن هؤلاء أيضا من كان ظالما قاسيا غليظ القلب لا يرعى الا ولا ذمة ولا هم له الا جمع الأموال وانفاقها في وجوه غير مشروعة والسلب والنهب وقطع أرزاق الناس . الا أن أهل قوص كانوا يملكون من الشجاعة والقوة ما يؤهلهم لأن يقفوا في وجه الوالي المتعسف الظالم فيخبرون السلطان بأفعاله وأحواله ويرجونه عزله فيعزله أو يثورون في وجهه ينكلون به ، فقد ورد أن أحد الامراء في القرن السادس الهجري ولي قوص وجار على أهلها وأذاقهم العذاب ألوانا فكان أن ثاروا في وجهه وقتلوه ونكلوا به فربطوا كلبا ميتا في رجله وسحبوه حتى ألقوه على مزبلة (١) .

القضاة :

هم من أهم الطبقات وأكثرها اجلالا واحتراما يخضعون مباشرة لقاضي القضاة بالقاهرة وهو الذي يتولى تعيينهم

---

(١) علي باشا مبارك : الخطط جـ ١٤ ص ١٣٩ .

أو عزلهم وهم بدورهم لهم السلطة في تعيينهم ممثلين لهم في مدن اقليمهـم ، وقد كانوا يمثلون المذاهب الأربعـة : الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل الا أن هذا المذهب الأخير قليل الخطر ويتخذ قاضي القضـاة لاقليم قوص مقر عمله العاصمة قوص . ولقاضي القضاة جهاز اداري يتولى معاونته وهم : **الموقعون والشـهود العدول** الذين يلعبون دورا هاما في تبصير القاضي بأمور قد تكون خافيـة عليه وذلك بحكم المامهم بأحوال مجتمعهم الذي يعيشون فيـه وشهادتهم نافذة وقولهم فصل، ولكل بلد شهودها ويتخذون من سوق الوراقين بقوص مكانا يجلسون به يسمى حوانيت الشهود وهو ما يشبه المكاتب في مفهومنا العصري (١) .

الحجـــاب :

وهم الذين يتولون عـرض الشـــكاوى والمظـــالم وادخال الناس في نظام الى القضـــاة ويعاونهم في ذلك العسس وهم حفظة الامن الذين يتولون تنفيذ حكم القاضي والقبض على الفارين وايداعهم السجن كما أن هناك دواوين وادارات تخضع مباشرة لسـلطة القاضي وهذه الدواوين والادارات تعتبر من أهم الدواوين والادارات حساسية في الدولة حيث تتـولى الاشراف على أموال الدولة وأرزاق الناس ومعاشهم ، ومن هذه الدواوين : **وكالة بيت المال** التي تتولى شئون المبيعات والمشتريات من أرض أو عقار . **ديوان الأحباس** والذي يشـبه الأوقاف في عصرنا الحاضر

(١) الادفوي : الطالع السعيد في تراجم متفرقة .

وصاحبها يتحدث فى رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس والانفاق عليها . **متولى الضرب** وهو الذى يتولى ويرعى شئون دار ضرب النقود ويحافظ على ما بها من دنانير ودراهم وفلوس فضة كانت أو ذهبا ، ويخطر قاضى القضاة بسير العمل فيها وحسن أدائه وسلامة مقتنياتها . وقد كانت بقوص دار لضرب النقود لا تقل عظمة عن دار القاهرة والاسكندرية (١) .

وبالاضافة الى هذه الدواين التى كان يتولى قاضى قضاة قوص الاشراف عليها ومراقبة حسن سير العمل بها نرى ضمن اشرافه أيضا **رئيس المؤذنين** الذى يتولى تحديد مواقيت الأذان واثبات رؤية هلال كل شهر عربى ويقسم أمام قاضى القضاة بمشاهدته لهلال شهر الصوم المبارك وعليه أيضا أن يحدد أيام المواسم والأعياد الدينية وقد كان لوظيفة رئيس المؤذنين هذه كيانها فى عصر الايوبيين والمماليك فكان لا يليها الا من كانت له دراية تامة بعلوم الميقات (٢) . **وكذا عاقد الانكحة** وهم الذين يتولون اجراء عقود الزواج بالصيغة الشرعية بين الناس ، وقد كان مقرهم فى حوانيت لهم أيضا بسوق الوراقين بقوص .

ونظرا لأن هذه الدواوين والوظائف كانت تهم عامة

---

(١) المقريزى : ج ١ ص ١٧٧

(٢) الادفوى : الطالع السعيد . الترجمة رقم ٤٤٣ .

الشعب ، ترتبط ارتباطا وثيقا بشئون ديانته . فقد حظيت من قاضي القضاة في كل اقليـــم باشراف دقيق ومباشرة فعلية حتى يتسنى له أن يقف على حسن سير الامور فيها ويعاقب كل من يتقاعس أو يهمل من المسئولين فيعزله أولا ثم يوقع عليـه عقابا صـارما عنيفا لا تأخذه فيه رحمة فقد حدث أن رئيس المؤذنين في قوص اختلط عليه معرفة وقت الاذان فأقامه في غير موعده الشرعى فأقصى عن هذه الوظيفة ومنع عنه راتبها فترك قوص وتوجه الى اليمن (١) ٠

وقد كان القضاة يعقدون جلساتهم في الجامع أو في بيت القاضي أو مكان متسع في المدينة ، وهم يرتدون اللون الأسود من الثياب المكون من الطرحات والعمامة والشاشه ولا يلبسون الحرير أو ما غلب عليـه ، واذا كان الشتاء كان ملبوسهم من الصوف الأسود ، ولا يلبسون الملون الا في بيوتهم (٢) ٠

العلماء والفقهاء :

لقـد كانوا من الكثرة في هذه المدينـة حتى أنهم يفوقون الحصر ، وذلك لأن مدينة قوص كانت مشهورة في ذلك الوقت بكثرة جوامعها ومدارسـها التي بلغت ست عشرة مدرسة ، ولقد كان أغلب هؤلاء العلماء والفقهاء ليسوا

---

(١) المصدر السابق الترجمة رقم ٤٤٣

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى .. ص ٤١٦ ٠

من أهل قوص وانما هم من بلاد المغرب والمشرق كسبته وقرطبة والمهدية ومكة ودمشق وسهرورد واذا ذكر العلماء والفقاء في قوص فانما يذكر البيت القشيرى وهو بيت العلم والفقه فى هذه المدينة فقد تصدى جل أفراده رجالا ونساء للدرس والفتوى وعلى رأسهم الشيخ الفقيه مجد الدين القشيرى الذى تخرج على يديه مختلف أبناء الصعيد فلا تكاد تخلو ترجمة من تراجم الطالع السعيد للادفوى الا ولاسمه ذكر فيها ، وابنه العالم الفقيه تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى قاضى قضاء المسلمين فى العصر المملوكى (١) .

وقد اكتسبت طبقة العلماء والفقهاء عموما احترام الناس واجلالهم فالأمراء والحكام كانوا يجلونهم ويقدرونهم ويخشونهم ويخافوهم ، وكثيرا ما كانوا يتشفعون للناس عندهم فتقبل شفاعتهم (٢) وقد تقلد الكثير منهم مناصب رئاسية فى الدواوين .

التجار :

لا نكون مبالغين اذا قلنا أن أغلب أبناء قوص كانوا يشتغلون بالتجارة وذلك بحكم موقع مدينتهم الجغرافي فهم قد حذقوا فن المعاملات من هؤلاء الوافدين عليهم من تجار المشرق والمغرب ، ولقد ركبوا فى سبيل

(١) الادفوى : الطالع السعيد . الترجمة رقم ٤٦٣

(٢) الادفوى : الطالع السعيد . الترجمة رقم ٣٣١ .

التجارة كل صعب فعبروا البحار وطافوا بشتى المدن والعواصم الاسلامية يتجرون فى المنسوجات بمختلف أنواعها والتوابل والعطور والأصباغ والزيوت وما الى ذلك وقد أثروا من هذه التجارات ثراء فاحشا .

الصناع والحرفيون :

بجانب طبقة التجار هذه نرى أيضا طبقة الصناع والحرفيين ، فقد شهدت قوص العديد من الصناعات اليدوية كصباغة المنسوجات ودباغة الجلود وصناعة الحصر والبرام، وهى الأوانى الفخارية ، وقد ظهر فى مجتمع قوص النساج والصباغ والدباغ وغير ذلك . وبجانب هؤلاء نرى الحرفيين وهم المكاريون من لهم دراية بالحمير من بيع وشراء وتربية . والكناسون والاسكافيون والسقاءون والحدادون والقصابون وقد كان لكل صناعة وحرفة شيخها الذى يتولى شئونها .

الفلاحون :

لا نلمس فى مجتمع قوص هذه الطبقة بالمعنى المفهوم ، وذلك لأن قوص كانت كما يقول ابن الجيعان ، ليس لها طين أراض زراعية وانما كان هناك البستانيون ومفرده بستانى وهو (الجناينى) أو (الفكهانى) وهو الذى يشرف على الحدائق والبساتين ويتولى جمع ثمارها والاتجار فيها ، وهؤلاء كثرة فى مجتمع قوص ، وذلك لأن

أغلب المباني والمنشآت في هذه المدينة كانت السمة الغالبة عليها أن تحاط بالحدائق والبساتين المورقة • وقد خبر هؤلاء البستانيون مختلف أنواع الفواكه من حيث زراعتها وتسويقها •

العوام :

هم الطبقة الدنيا في كل مجتمع وفي مجتمع قوص يتمثلون في حملة المشاعل أي الذين يحملون البيارق في المواسم والاعياد والسقائين والكناسين والاسكافيين ، بجانب هؤلاء نرى قطاع الطرق واللصوص وكان هؤلاء يشكلون خطرا على المجتمع من حيث استتباب الأمن فيه لكثرة شغبهم وأعمالهم التخريبية •

النصارى :

كانت مدينة قوص مكتظة بالنصارى منذ أقدم العصور ، وحينما فتح العرب مصر وانتشر الدين الاسلامي أسلم من هؤلاء من غمر الله قلبه بالايمان فبقي منهم من بقي على دينه ، والدليل على كثرة النصارى في هذه المدينة كثرة الكنائس والأديرة بها فقد ذكر أبو صالح الأرمني في كتابه الكنائس والأديرة (١) ، وعبد الغفار بن نوح الأقصري الادفوي والمقريزي في مؤلفاتهم عديدا من

---

(١) أبو صالح الارمني : كنائس وأديرة مصر ص ١٠٣ .

هذه الكنائس والأديرة بالاضافة الى أنه كان لهؤلاء النصارى خصوصا فى عصر الأيوبيين والمماليك مطلق الحرية فى آدائهم لشعائرهم وطقوسهم الدينية والاحتفال بأعيادهم ومواسمهم ، وهم أى النصارى يمتازون بالنزاهة والأمانة والعفة والصدق والاخلاص فيما يؤدونه من أعمال بجانب أنهم كانوا مهرة فى علم الحساب ، لذلك فان الأمراء والحكام أسندوا اليهم جباية الخراج وشئون الحسبة وكل ما يتعلق بشئون المال أيضا ، وقد كانت تربطهم بالمسلمين صلاة ود قوية حتى أن قسيسيهم ووجهائهم كانوا يحترمون ويجلون علماء المسلمين ويقدرونهم، فقد ورد أن العالم الفقيه الشيخ على بن وهب بن مطيع القشيرى وهو من أشهر العلماء فى قوص قصد يوما مستوفيا نصرانيا له صورة وجاه يتولى جمع الخراج من الناس كى يتشفع عنده لصاحب حاجة ، فأمر أن يصحبه الى بيت هذا المستوفى فقال له الخادم متعجبا : ياسيدى أنت تريد أن تمشى الى بيت هذا النصرانى ؟ ، فأصر الشيخ العالم الفقيه على ذلك واتجه الى بيت هذا المستوفى وطرق الباب فخرجت الجارية فقال لها الشيخ الفقيه قولى لسيدك ان الشيخ الفقيه المدرس بالباب ، ودخلت فاذا المستوفى قد خرج حافيا وقال ياسيدى كنت ترسل الى خادمك وأنا أحضر اليك (١) وهذه الواقعة تعطينا صورة صادقة على مدى الاحترام المتبادل بين علماء المسلمين ووجهاء النصارى فى قوص .

---

(١) الأدفوى : الطالع السعيد ، الترجمة رقم ٣٣١ .

الأقليات الأجنبية :

لقد شهد مجتمع قوص في العصر الاسلامى عددا من الجنسيات المختلفة من الشرق والمغرب عاشت تحت وارف ظـــلاله وذلك لان هـذا المجتمع فى ذلك الوقت كان مجتمعا مفتوحـا لقوافل التجـــار والحجـاج من المشرق والمغــرب فقـــد ذكر ابن جبير وياقوت الرومى وغيرهم عددا من هـذه الجنســيات مثــل العدنيين واليمنيين والأحباش والهنود والمغاربة وعـرب التكرور وهـم من قبائــل غرب افريقية ، كل هذا الخليط العجيب من هذه الجنسيات كان يعيش فى مجتمع قوص ويشتغل بالتجارة فى منتجات المغرب واليمن والحبشـة وافريقيا الوسطى وقد نشأت فيما بين هذه الاقليات من التجار ما يســمى برابطة التجار أطلق عليها اسم (التجار الكارميـــة) أو الكانمية (١) واتخذ هذا الاسم على الخصوص اعتبارا من العصر الأيوبى ، وكانوا يتجرون فى التوابــل (الفلفل) والبهار) وكانت قوص احـدى المراكز الهـامة فى الديار

---

(١) الدكتور عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية ص ٥ ، حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية جـ ١ ص ٥٨ ـ ٥٩ ، الدكتور صبحى لبيب : مقال بعنوان التجارة الكارمية فى مصر فى العصور الوســطى ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع العدد الثانى مايــو ١٩٥٢ من ص ٥ ـ ٦٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

المصرية فى هذه التجارة وقد انضم الى هؤلاء التجار الكثير من التجار فى مختلف بلاد الاقليم وقد امتازوا بالورع والتقوى وتمسكهم بالدين الحنيف حيث أنهم جعلوا من أنفسهم دعاة للاسلام الى جانب اشتغالهم بالتجارة .

وقد دخل هؤلاء التجار بلاد الحبشة تحت ستار التجارة وأخذوا ينشرون الدعوة بين الاحباش فأسلم على أيديهم الكثيرون ، وقد أثرى هؤلاء من خلال هذه التجارة ثراء عظيما حتى أنهم أصبحوا يمثلون فى قوص طبقة الراسمالية الا أنهم قد أنفقوا الكثير من أموالهم هذه فى نشر الدعوة الاسلامية في البلاد التى كانوا يسافرون اليها ، كما أن مجتمع قوص قد استفاد كثيرا من هؤلاء فأنشأوا به عديدا من الربط والزوايا والمساجد كما أنهم أجزلوا فى العطاء لرجال العلم والدين والشعراء أيضا وقد ورد ذكر الكثير منهم عند ابن نوح فى كتابه الوحيد والادفوى فى طالعه السعيد (١) .

المرأة ومدى نشاطها :

لقد كان للمرأة أيضا في مجتمع هذه المدينة نشاطا ملحوظا فى شتى نواحى الحياة فلقد اخذت طريقها الى

---

(١) ابن نوح : الوحيد فى ورقات متفرقة . الادفوى : الطالع السعيد : تراجم متفرقة .

السوق كي تبتاع ما تتطلبه في شئون حياتها من مأكل ومشرب وملبس ، ملتزمة في ذلك الحشمة والوقار أثناء خروجها من منزلها ، فهي تضع القناع على وجهها ولا تبدى تبرجا في زيها لذلك فقد كسبت احترام مجتمعها واجلاله ولقد لعبت دورا هاما في الوقوف بجانب زوجها ومعاونته في أمور دنياه حيث حرصت على أن تهيىء له حياة هانئة آمنة كان لها أبعد الأثر في حياته وتقدمه في أعماله ، لذلك فهو يغار عليها فيأنف أن تقف بجانبه في متجره أو حانوته تساعده في أمور معاشه وكان يرى في ذلك عارا وشنارا • وأما في جانب الحياة الدينية فقد سجلت المرأة القوصية بكل فخر جهدا محمودا والدليل على ذلك أنه قد تردد في مجتمع قوص كثير من أسماء النساء الشهيرات اللائي لعبن دورا هاما في هذا الجانب • وإذا ما ذكرت الناحية الدينية في قوص فانه يذكر البيت القشيري فقد خرج من هذا البيت المعروف كثير من النساء الجليلات شاركن مشاركة فعالة في نشر الثقافة الاسلامية في ربوع اقليم قوص ، فمنهن تاج النساء بنت على القوصية ، وخديجة بنت على بنت وهب القشيرية ، ورقية بنت محمد بنت على بن وهب القشيرية ، وقد تحدث الادفوي في طالعه السعيد عنهن في تراجم متفرقة (١) بالاضافة إلى ان إبن نوح الاقصري

(١) الادفوى : الطالع السعيد • الترجمة رقم ١٠٧ والترجمة رقم ١٦٤ والترجمة رقم ١٧٠ •

فى كتابه الوحيد قد أشار أيضا الى كثير منهن مثل السيدة المعروفة (بالست سـلامه) الفقيهة المحدثة التى كانت تلبس الأزرق من الثياب وتشـارك فى العلوم الفقهية والمعروفة بمواصلة الاربعين النووية وقد كسبت بتقواها وصلاحها هذا تقدير الوجهاء والاكابر من اقليم قوص (٢)٠
من خلال هذا النشاط الذى آحرزته المرأة القوصية وبصفة خاصة فى الجانب الدينى، ونستطيع أن نقول ان المرأة بوجه عام فى مجتمع قوص فى العصر الاسلامى كانت على قسط وافر من الفهم والادراك لتعاليم دينها ودنياها ٠

---

(١) ابن نوح : الوحيد جـ ١ ورقة ١٨٤ وجه ٠


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الفصل الرابع

الحياة بوجه عام فى مجتمع قوص خلال هذه الفترة

المنشآت والمبانى ـ الاســواق والحوانيت والتجار والصناع ـ المواسم والأعياد الدينية ـ موسم الحج ـ الطريق من قوص الى الاراضى الحجازية ـ وســائل اللهو والتسلية ـ الموسيقى والغناء والفنون ٠

الحياة بوجه عام فى مجتمع قوص
فى العصر الاســلامى

من الواضح فيما سبق أن أوردناه من خلال حديث المؤرخين عن مدينة قوص أن مجتمع هذه المدينة يكاد يكون متفردا بين مجتمعات مدن الصعيد بأسره وذلك من حيث ازدهاره ونشاطه فى مختلف جوانب الحياة ، فهو مجتمع مفتوح لعديد من الجنسيات فأنت ترى فيه العدنى والحبشى واليمنى والمغربى • وهؤلاء اما تجار أو حجاج أو مسافرون أو علماء وفقهاء نزلوا هذه المدينة وأقاموا بهــا فترة ثم آنست نفوســهم طيب المعيشة بها فاستوطنوها وتناكحوا على أرضها وأعقبوا نسلا صالحـا : وهذا الخليط العجيب من هذه الجنسيات المتبــاينة فى العــادات والتقاليد الاجتماعية والطباع تفاعلت بمضى الزمن فى سهولة ويسر مع سكان هذه المدينة الاصليين وكونوا مجتمع قوص فى العصر الاسلامى • وقد كان نتيجة لذلك أن الحياة فى هذه المدينة أصبحت متدفقة فى كل ركن من أركانها وفى كل موسم من مواسمها الدينية وأعيادها وبصفة خاصــة فى عصر سلاطين المماليك :

ونحن من خلال كتب المؤرخين والرحالة العرب سوف نتلمس جوانب الحيــاة فى هذه المدينة فى شوارعهـا ومنشآتها وأسواقها وحوانيتها وفى كل مظهر من مظاهر أهلها الاجتماعى .

المنشآت والمباني :

تطل مدينة قوص على الساحل الشرقى من النيـل وتستقبل الوافدين اليها بمبانيهـا ومنشآتهـا العديدة كالمنازل التى يتكون أغلبها من الحجارة أو الطوب الأحمر . وقد امتازت هذه المنازل بكثرتهـا والتصاقهـا ببعضها ثم القصور التى تخص أصحاب الثراء والجاه والتجار وأرباب المعاشـات ، بالاضافة الى الفنادق والنزل والخانات ، وهى لايواء الغرباء والوافدين . ومن أشهر خـانات قوص خان يعرف بخان السلطان (١) يقع بظاهر هذه المدينة قد بناه أحد السلاطين وهو عبـارة عن ساحة مربعة بداخلها ثلاثة صفوف من الممرات بعضها فوق بعض يتكون من غـرف صغيرة مؤثثة وبه صحن متسع من الداخل تربط فيه دواب النزلاء والوافدين ويحيط جوانبـه من الخارج حوانيت التجار (٢) وقد تعرض خان قوص هذا لحريق مدمر (٣) .

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ، الترجمة رقم ٢٢١ .

(٢) البستانى : دائرة المعارف الاسلامية مادة خان .

(٣) الادفوى : الطالع السعيد ، الترجمة رقم ٢٣١ ص ٢٨٨ .

وقد كانت قوص تغص بالأسبلة (١) والحمامات التى من آشهرها حمام يعرف بحمـام الزبير ، والربط والزوايا والمدارس والمكاتب ثم المساجد والجوامع بمآذنها ومناراتها السامقة والعامرة دائمـا بذكر الله ، وكل هذه المنشآت والمبانى غالبا ما كانت تحاط بالبساتين والحـدائق التى تكسـبها روعة وجمالا وحسنا وتعتبر هذه المنشآت منافع عامة يتبرع باقامتها السلاطين والامراء وأرباب الجـاه والثراء ، ويوقفون عليها الاوقاف والاحباس لذلك فهى تحمل أسماءهم فى الأغلب الأعم ، وقد امتازت قـوص بشوارعها ودروبهـا وكثرة أزقتهـا وعدم استوائها فهى كثيرة المرتفعات والمنخفضـات ، كمـا أنهـا أيضـا كثيرة المنحنيات والمنعطفات تكتظ دائمـا بالباعة الجائـلين والسقائين وأرباب الحرف وتضـاء ليـلا بالاسرجة والقناديل (٢) .

الأسواق والحوانيت :

تمثل الأسواق فى مدينة قوص نهضتها الاقتصادية فمن خلال هذه الاسواق ومن خلال نشاطهـا وتقدمهـا وازدهارها نستطيع أن نقف على مدى تطور هذه النهضـة الاقتصادية التى كانت تعيشها قوص خلال هذه الفترة ،

---

(١) الاسبلة مفردة سبيل .

(٢) ابن نوح الاقصرى الوحيد : ورقات متفرقة .

فقد كانت هذه الاسواق دون ما جدال عامرة بالداخل فيها
والخارج منها من التجار وارباب المعاشات كما انها كانت
مليئة بالحوانيت المكتظة بمختلف البضــائع من المشرق
والمغرب ، وقد وصف الشريف الادريسى وابن جبير هذه
الاســواق والحوانيت بأنها جامعة كثيرة الخيرات ومن أهم
أسواق قوص : سوقان هامان هما سوق الغرابليين وسوق
الوراقين . فأما سوق **الغرابليين أو المغربلين** فقد كان يقع
فى ظاهر هذه المدينة يتوســـطه مسجد مشهور يسمى
بالمسجد المعلق ، وهذا السوق يزخر بمختلف أنواع الغلال
والحبوب التى كانت ترد الى مدينة قوص من توابعها ، وهو
مقر رئيسى لتجار الحبوب من مختلف أنواعهـــا من قمح
وشعير وفول وذرة وعدس وما الى ذلك كما أن اســـم
ارتبط بالغرابليين الذين هم طائفة تتولى غربلة الغــلال
وتنقيتها من الأتربة والسوس والشوائب التى من شــأنها
ان تجعل الدقيق بعد خبزه مرا (١) .

وأما سوق الوراقين فقد كان سوقا نشطا ساعد على
نشاطه ، هذا ما كانت تتمتع به قوص من نهضـــة ثقافيـة
واسعة خلال هذه الفترة ، وقد قال فى تعريفه ابن خلدون
ان أهله هم المعنيون بالانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر

---

(١) عبد الرحمن ابن نصر الشـــيزرى نهاية الرتبة فى طلب
الحسبة ص ٢١ .

الامور الكتبية والدواوين (١) . وبناء على ذلك فان هذا السوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلماء والفقهاء والطلبة الذين كانت تكتظ بهم مدينة قوص فى ذلك الوقت الاضافة الى أرباب الاقلام من رجال الدواوين . ونحن اذا ما تجولنا فى سوق الوراقين هذا نجد أنه كان حافلا أيضا بحوانيت الشهود وعاقدوا الانكحة الذين يتولون اجراء عقود الزواج بجانب النساخ المعروفين بخطهم الجيد الحسن الذين يجلسون منهمكين فى نسخ الكتب الفقهية والتاريخية وبيعها بأثمان مرتفعة ، وكذا المجلدون البارعون فى فن تجليد الكتب بعد نسخها بالاضافة الى باعة الورق والأقلام والحبر (٢) كل يحاول أن يروج لتجارته وسلعته وفوق كل هؤلاء نجد أيضا طائفة تخصصت فى كتابة الشكاوى والمظالم للناس امتازت بأسلوبها القوى الدقيق فى تصوير الشكوى أو المظلمة حتى أن الحاكم أو القاضى حين ينظرها تأخذه بصاحبها الشفقة أو العطف فيبرم حكما فى صالحه . ولكنه مع الاسف أن جميع العاملين فى هذه السوق قد تفشت بينهم الوشايات والفتن والنميمة فكان سلوكهم مع الواردين عليهم سلوكا شائنا فهم يسلبون الناس أموالهم ويغلظون لهم فى القول ويعطونهم وعودا غير صادقة لذلك فان الناس قد ساءت الظن بهم

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٢١ .

(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٧٦ .

وبمعاملتهم . وقد وصف هذه المعاملة السيئة أحد الفقهاء في منظومة شعرية يقول فيها :

أيا سائلي حالي بسوق لزمته
يسمونه سوق الوراقة ما يجدي

خذ الوصف مني ثم لا تلو بعدها
على أحد من سائر الخلق من بعدي

يكسب سوء الظن بالخلق كلهم
وخسة طبع في التقاضي مع الحقد

وينقص مقدار الفتى بين قومه
ويدعى على رغم من القرب والبعد

وان خالف الحكام في أمر أمرهم
يرى منهم والله كل الذي يردي

ولا سيما في الدهر ان رسموا لنا
باربعة في كل أمر بلابد

ويكفيه تمعير (١) النقيب وكونه
يشتط (٢) بين الرسل في حاجة الجند

---

(١) تمعير : غطرسة .
(٢) يشطط : يجرى يمينا ويسارا .

وان قال انى قانع بنفـــــــردى
فهذا معاش ليس يحصل للفــــــرد

فبـــالله الا ما قبلت نصـــيحتى
وعانيت ما يغنيك عنه وما يجـــدى

وان كنت مقهورا عليـــه لحاجــــة
فصــاير عليه (لا تعيد ولا تبدى (١)

وبجانب هذين السوقين نرى سـوق قوص العـــام الذى كان يقع فى قلب هذه المدينــة وكانت تروج فيــه مختلف البضائع والمصنوعات الواردة من بـــلاد المشرق والمغرب بجانب المحلية منها ، التى كانت تنتجها قوص ، فنحن نرى فيه تجار التوابل ، كالفلفل والبهار « تجـــار الكارمية » التى سبق الحديث عنها بجانب المسك والقرفة والكافور وخشب الابنوس ومختلف العطور ، كمـــا أن حوانيت المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانيـة قـــد التحـم بعضـــها ببعض وجد أهلهـا الذين امتازوا بالمهارة والدقة التى وقفوا عليها من الوافدين عليهم من بـــلاد المشرق والمغرب فى اعطاء نتاج حسن لمصنوعاتهم هذه ، فمن خـلال مرثيـــة يرثى بهـــا أحد شعراء قوص قزازا نستطيع أن ندرك مدى نشـــاط هذه الصنعة التى كان يتمتع بها أرباب هذه الصناعات فيقول الشاعر :

(١) الادفوى : الطالع السعيد ، الترجمة ٢٦٣ .

بكى فقدك المكوك والمقبض السنط (١)
وناح عليك النير والتخت (٢) والمشط

وأعولت الالطاخ (٣) والمغزل الـــــذى
تدوره فيها انامك النشــــــط

انامل لم تخلق لشيء سوى السدى (٤)
ولقط وتخليص وياحبذا اللقط (٥)

فقد اعطى هذا الشاعر صورة صادقة على مدى تقدم صناعة الخز (الحرير) وبالتالى ، فقد أوضح لنا الأدوات والآلات التى كانت تستخدم فى هذه الصناعة فهو يشـير الى المكوك والمغزل والتخت والنير والمشط والالطاخ ، كما أنه قد أكد لنا مهارة وبراعة القائمين بهذه الصناعة ٠

وبجانب حوانيت النسيج هذه نرى أيضا حوانيت دباغة الجلود والصياغة وصـناعة البرام والحصر والمرادح وكل هذه الصـــناعات محلية فرضتها بيئة قوص التى توفرت فيها المواد الخام التى قامت عليها هذه الصناعات ،

---

(١) السنط : بالكسر ـ المفصل بين الكف والساعد ٠
(٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب ٠
(٣) الالطاخ : ومفردها لطخ : عامية يستعملها العامة للقصبة التى يدير حولها الحائك الغزل ٠
(٤) السدى : بفتح السين المهملة المشددة ـ مامد من الثوب ٠
(٥) الادفوى : الطالع السعيد ـ الترجمة ١٦٠ ٠

فقد أظهر أبناء قوص فنيـــة ومهـــارة بالغـة حتى انهم سيطروا على مختلف أسواق الصعيد ، فدباغة الجلود مثلا ساعدت على قيامها كثرة المراعى التى امتازت بها قوص ، وصـــناعة البرام التى هى الاوانى الفخارية التى كانت تستـخدم فى الشـــئون المنزلية كأوانى الشرب والأكل والطهى قد أدى الى قيامها توافر معدن البرام ، وهو الطينة الطفلية التى كانت تقوم عليها هذه الصناعة ، وصـباغة المنسوجات التى تدخل فيـها كثير من النباتات كالنيلة المتوفرة فى هذه المدينة ، وقد كانت الطريقة المتبعة فى هذه الصناعة هو أن الحانوت الخاص بها تمتد فيه أزيار مختلفة بها ألوان متعددة ، ويصبغ كل ثوب فيها حسبما يطلب صاحبه من ألوان الصبغ . فهذا نهر قد خصص لصباغة اللون الاحمر ، وآخر قـد خصص للون الازرق ، وكان الصـباغ يلقى بالأثواب المراد صـبغها فى هذه الأزيـار ويتركها مدة حتى تتمكن من اللون ويتمكن منها اللون ثم يخرجها من زيرها ويعصرها عصرا جيدا ، ويبـدأ بعد ذلك يدقها بمطرقة من خشب مدة طويلة حتى تغدو أصـيلة الصباغة (١) . بجانب أننا نرى تجار الماشية والمكارين الذين يتولون شراء الحمير وبيعهـا والحلوانيين والفرانين والخبازين وأرباب الحرف كل يحاول أن يروج لما فى يديه

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ ٥ حوادث ٦١٢ هجرية .

من بضاعة أو سلعة كما ان السقائين والحلاقين كانوا يطوفون بالشوارع والأزقة يؤدون خدماتهم فى مرح وسرور • وقد كانت هذه الاسواق تقع تحت تفتيش دقيق من المحتسب الذى كثيرا ما كان يفاجيء أهل هذه الاسواق ويقتحم حوانيتهم ومتاجرهم ، ويراقب أيضا المكاييل والموازين ويعاقب كل من يحاول الغش أو التلاعب بحقوق الناس •

(٢)

وقد اختارت مدينة قوص يوم الأحد (١) من كل اسبوع سوقا لها فى هذه الفترة التى تؤرخ لها ، الا أنه لكثرة الحوادث والفتن التى كثيرا ما كانت تقع فى هذا اليوم بالذات الذى يتفق فيه خروج النصارى من كنائسهم وتجمعهم استبدلت فيه السلطات الحاكمة يوم الاثنين من كل أسبوع منعا من هذه الفتن والحوادث •

المواسم والأعياد الدينية :

لقد حظيت المواسم والاعياد الدينية باهتمام بالغ من أهل قوص ، وذلك لشدة تمسكهم بتعاليم الدين الاسلامى الحنيف ، فقد حرصوا كل الحرص على أن يأخذ الاحتفال بمثل هذه الاعياد والمواسم طابعا حماسيا قويا

---

(١) ابن نوح الاقصرى الوحيد •• مخطوط جـ ٢ ورقة ١٥ وجه •

فقد كانوا يفرطون فى التبتل والخشـــوع الى الله تعـالى يطلبون رحمته ورضوانه فى هذه المناسبات المباركة .

ففى عيد رأس السنة الهجرية وعاشـــوراء وأيام المولد النبوى الشريف وغرة رجب وليلة الاسراء والمعراج وغرة شعبان وليلة النصف منــه وشهر رمضان ولياليه المباركة وبصفة خاصة ليلة القدر والغرة الأخيرة منه وعيد الفطر المبارك وعيد الاضحى المبارك . كان الناس بمختلف طبقاتهم فى هذه المدينة يتعاطفون فيما بينهم فى كل هذه المناسبات الكريمة مظهرين شعور المحبـة والأخوة يبالغون فى الانفاق فى وجوه البر والخير . ولقد كانت المساجد والزوايا والطرقات تضاء ليلا فى هذه المواسم بالاسرجة والقناديل حتى مطلع الفجر كما كانت تقام الأذكار وتنشد القصائد فى مدح النبى عليه الصــلاة والسلام وآل بيته الأطهار . الا أن موسم الحج فى قوص كان له طابع مميز فى هذه الاعياد السابقة وذلك لأنــــه يحمل دلالتين قويتين فالدلالة الاولى هى الدلالة الدينية وهى بيت الله الحــرام والطواف بالكعبة وزيارة الروضــــة الشريفة ، والدلالة الثانية هى الدلالة الاقتصادية التى كانت تعيشها هــذه المدينة خلال هذا الموســم من كل عام . فقد كانت تموج الأســواق وتعمر الحوانيت بمختلف البضـــائع والسلع ويزداد حجم البيع والشراء ويعم الرخاء مختلف أبنـــاء قوص بالاضافة الى أن هذه المدينة كانت تستقبل فى هذا الموسم من كل عام الأمراء والوجهاء والقضـــاة والعلماء

والفقهاء ورجال الصوفية وهم فى طريقهم الى قضاء فريضة الحج حيث كانوا يقضون بقوص الأشهر الطوال قبل توجههم الى الأراضى المقدسة أو بعد أدائهم فريضة الحج . فالرحالة الفارسي ناصر خسرو والشريف الادريسى وياقوت الرومى والرحالة المغربى ابن جبير وابن بطوطه قد عرفوا هذه المدينة ومكثوا فيها الأيام الطوال وأشاروا اليها فى مؤلفاتهم بالاضافة الى أن محيى الدين بن عربى وعمر بن الفارض وأبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى هؤلاء الصفوة الأخيار قد نزلوا هذه المدينة وأقاموا بها فترة طويلة خلال موسم الحج كما اشار الى ذلك ابن نوح الأقصرى (١) وقد كان لهذا أثر كبير على الناحية الثقافية فى قوص حيث انتهز العلماء والفقهاء فى هذه المدينة وجود هؤلاء العلماء والمتصوفة بين ظهرانيهم فالتفوا حولهم واستفادوا كثيرا على أيديهم فى علمى الحقيقة والشريعة .

الطريق من قوص الى الأراضى المقدسة :

لقد كان الحجاج وهم فى طريقهم الى الأراضى المقدسة يتوجهون من قوص الى صحراء شاسعة كانت تسمى فى العصر الاسلامى بصحراء « عيذاب » التى هى الصحراء الشرقية الآن ثم منهـا حيث يركبون بحر القلزم وهو

---

(١) ابن نوح الأقصرى : الوحيد فى سلوك أهل التوحيد فى ورقات متفرقة .

المعروف بالبحر الأحمر الآن ، ولقد سبق أن أشرنا الى هذه المواضع من قبل . ثم من هـذا البحر يتجهون الى الأراضى المقدسة حيث يركبون سفنا كانت تسمى « الجلاب » وقد وصف الرحالة المغربى ابن جبير هذا الطريق وصفا مسهبا فنراه يقول :

ان قوافل الحجاج تأخذ طريقها من مدينة قوص الى مكان يقال له المبرز وهو موضع فى الاتجاه القبلى من قوص على مسافة يسيرة منها فسيح المساحة محدق بالنخيل يجتمع فيه رجال الحاج ويشـد فيـه ومنه يرحلون وفيه أيضـا يوزن ما يحتاج اليـه وزنه على الحمالين كمـا كانت تعـد وتجهز فيه الأبل التى كانت الوسيلة الوحيدة للمواصلات فى ذلك الوقت وكانت هذه الابل على نوعين : نوع لذوى اليسار ونوع لعامة الحجاج البسـطاء ، فأما نوع ذوى اليسار فيعد من الابل اليمانيـة ويجهز بالمحامل الموثوقة بالسروج السفرية ذات آذرع قد حفت بأركانهـا تثبت عليها مظلة وهى تسع راكبين يكون الراكب فيها مع عديله فى كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحا فى وطائه متكئا يتناول مع عديله ما يحتاج اليـه من زاد وشراب ويطالع متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب ومن شـاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج ان يلاعب عديله تفكها ، وأما نوع عامة الحجاج فهو الابل المجردة من المحامل والسروج لذلك فقد كانوا يكابدون من سموم الحر عنتا ومشقة ، وقد أوضح ابن جبير أن هناك طريقين يؤديان الى ساحل البحر الأحمر

وهما طريق قوص ـ عيذاب ، وطريق قنا / عيذاب وهذان الطريقان يلتقيان فى موضع يقال له ماء العبدين الا أن طريق قوص هذا كان أسهل وأقصر وهو الذى سلكه هذا الرحالة .

الى عيذاب :

بعد أن تجهز الابل تشد الرحال وتسير القوافل فى صحراء كانت تسمى صحراء عيذاب وهى الصحراء الشرقية حتى تصل الى ساحل بحر القلزم أو بحر الملح أو بحر فرعون وكلها أسماء كان يعرف بها البحر الأحمر فى العصر الاسلامى وهذه القوافل تمر من موضع المبرز الآنف ذكره الى ماء يعرف **بالحاجر** ثم الى موضع يعرف **بقلاع الضياع** ثم الى محط **اللقيطه** ثم الى ماء **العبدين** وقد سمى كذلك لأن عبدين قد ماتا عطشا قبل أن يرداه ، ثم دفنا به ثم الى موضع يعرف **بدنقاش** ثم الى **ماء شاغب** ثم **الى ماء امتان** ثم الى ماء يعرف **بميجاج** ثم الى ماء يعرف **بالعشيراء** ثم يسلك الحجاج طريقا سهلا رمليا يسمى الوضح ثم الى ماء **الخبيب** ثم منه مباشرة الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر وهو من أشهر الموانى الاسلامية فى ذلك الوقت ، وقد قطع ابن جبير هذه المسافة فى هذه الصحراء الشاسعة فى تسعة عشر يوما .

ركوب البحر :

يركب الحجاج من ميناء عيذاب هذا البحر حتى يصلوا الى ميناء جده وكانت الوسيلة الوحيدة المعروفة لركوب البحر آنذاك هى المراكب التى كانوا يسمونها الجلاب وهى من نوع بسيط لكنه يمتاز بالمتانة فى الصنع وقد كان أهل عيذاب الذين يطلق عليهم العيذابيون مهرة فى صنع هذه المراكب وذلك لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للتكسب والرزق يحملون فيها التجار والحجاج الى جدة ويردونهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة .

المراكب العيذابية :

كيف كانت تصنع هذه المراكب ؟ : لقد أعطى ابن جبير صورة صادقة عن مهارة أهل عيذاب فى صنعهم لهذه المراكب ، فنراه يقول باختصار انها كانت تصنع من خشب كانوا يستوردونه من الهند واليمن بطريقة لاتدخل فيها المسامير الحديدية البتة ، وذلك بأن يقطع الخشب ألواحا بمقاييس معينة بحيث يتضافر بعضه مع بعض عند تركيبه وهى طريقة التعشيق التي يسميها الرحالة التلفيق ثم تجمع هذه القطع ويربط كل منها مع ما يشابهها بحبل مصنوع من قشر جوز الهند ، بعد درسه ، ثم يخاط جسم المركب كله بعد ذلك بحبال من ليف النخيل خياطة محكمة بحيث لاتترك فرجة أو خرق صغير وبعد أن يتم

بناء جسم المركب بهـذه الصورة يدهنونه بزيت الخروج أو بزيت سمك القرش أو السمن ويفضلون زيت سمك القرش وذلك لاعطائه قدرا من المرونة لجســم المركب حتى تتحمل الصدمات والاحتكاكات الناشئة من كثرة الشعاب الصخرية المعترضة فى مجرى البحر الأحمر ، وأما أشرعتها فهى مصنوعة من خوص المقل (الدوم) ورغم ضعف بنية هذه المراكب الا أنها مناسبة لطبيعـــة هذا البحر بسبب مرونتها، وقد كان الحجاج يكترون هذه المراكب من العيذابيين الذين كان الجشع يملأ قلوبهـم فصـاحب المركب لاتهمه سلامة الحجاج بقدر ما يهمه جمع المال فهو يشـحن مركبه بأكبر عدد ممكن من الحجاج حتى تغدو كأنهـــا **أقفاص الدجاج** المملوءة على حد تعبير ابن جبير ، ويقولون فى ذلك مثلا « **علينا بالحجاج وعلى الحجاج بالأرواح** » وكانت هذه المراكب تقطع المسافة فى البحر من مينـــاء عيذاب حتى ميناء جدة فى حوالى تسعة أيام حسبما أشار ابن جبير (١) .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣١ ــ ٣٥ ، ص ٣٧ .

وسائل اللهو والتسلية فى مجتمع قوص

لقد عرف فى أهل قوص النشـاط والهمة والحركة والحيوية فى مختلف أوجه الحياة فهم لايميلون بطبيعتهم الى الكسل أو التواكل بل كان الجد والعمـل والجلد من أهم صفاتهم المميزة وكان لابد والأمر كذلك إلى أن يركنوا الى الهدوء والراحة والاستجمام حتى يستجمعوا نشـاطهم وحيويتهم . فهم فى فترات راحتهم واستجمامهم هذا كانوا يعمدون الى وسائل كثيرة من وسـائل اللهو والتسلية يقطعون فيها أوقات فراغهم ، وقد كانت هذا الوسـائل تختلف باختلاف السن ، فالشيوخ مثـلا وسائلهم فى ذلك تختلف اختلافا تاما عن وسائل الشبان . فلو أننا تتبعنا الشيوخ فى كيفية قضائهم أوقات فراغهم لوجـدنا انهم كانوا يميلون الى التجمع فى الدواوين والساحات أو أمام منازلهم من بعد صلاة العشاء على أضواء الأسرجة والقناديل يتجاذبون الحديث فى شئون حياتهم العـامة من تجـارة وبيع وشراء وما الى ذلك أوأنهم يعمدون الى القراءة فى بعض الكتب خاصة الكتب الدينية والتاريخية التى تتناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسـلم أو مناقب الأوليـاء

او يتلهون بالسير الشعبية كسيرة عنترة وأبي زيد الهلالي وما الى ذلك . وقد كانت طريقتهم في القراءة هي أن ينتدبوا شخصا من بينهم معروفا بحسن صوته وطول نفسه وقدرته على النطق السليم وهم في أثناء ذلك يتناولون أنخاب القهوة والشاي ويلفون التبغ ويقضون في ذلك وقتا طيبا . واذا ما انتقلنا الى الشباب وكيفية قضائهم لأوقات فراغهم نجد أن الأمر يختلف اختلافا كبيرا فالشباب أمامه وسائل اللهو والتسلية التي تفوق الحصر فقد حذق في العصر الاسلامي لعبة الشطرنج وقد كانوا يقضون فيها أوقاتا طويلة تنسيهم مأكلهم ومشربهم (١) وبجانب الشطرنج هذه كانت هناك لعبة تشبه الى حد كبير في عصرنا الحالي لعبة الورق (الكوتشينة) فقد ورد ذكرها في احدى تراجم الطالع السعيد . « فهم يكتبون أوراقا في بعضها صورة شخص صاحب متاع ، وفي أخرى صورة لص ، فاذا حصلت الورقة التي فيها صاحب المتاع يقول : يا جماعة ضاع لي كذا وكذا ، وأريد شخصا أو شخصين ـ على قدر ما يخطر له ـ يحضر لي اللص .

كما أن البعض كانوا يميلون الى حل الألغاز الشعرية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت والتي جرت على لسان الكثير من شعراء قوص وكانوا يجدون في حلها متعة ذهنية فائقة . وفي مجال الألعاب الرياضية نجد في

---

(١) الادفوي الطالع السعيد الترجمة ٣٩٦ .

الشبان ميلا شديدا الى السباحة فى النيل والتسابق فيما بينهم بالاضافة الى انهم كانوا أصحاب باع طويل فى ألعاب الوثب والقفز (١) .

الغناء والمغنون :

لقد كان أهل قوص عموما يميلون الى الطرب ويعشقون الغناء وقد عاش فى مجتمع اقليم قوص بوجه عام كثير من المغنين والمغنيات والملحنين الذين لحنوا الشعر وغنوه وقد أورد الادفوى ذكرا لكثير من هؤلاء فى بعض تراجمه ، فقد قال ان الشيخ عبد الغفار بن نوح قد كتب بخط يده وهو فى قوص هذه الأبيات التى يقول فيها :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب
آثم فى مذهبى من لا يحب
ذق على أمرى مرارات الهوى
فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن صبوة
عذرية ماذاك قلب

ودفعها الى شخص يدعى جعفر المذمذم الذى كان

(١) نفس المصدر الترجمة ٣٩٦ .

يلحن الشعر ويغنيه فلحنها وغناها وشاعت على لسان أبناء قوص (١) . كما أورد أيضا ان الكاتب الأديب الناظم حجازى بن أحمد الدبر قطانى كان يحب مغنية تدعى « النصيفة » ، وقد غنت من شعره هذه الابيات التى يقول فيها :

أدخل بدحسن علينا سرورا
انت والله نزهة العشاق

لاتميل الى الخروج سريعا
تخرجى عن مكارم الأخلاق (٢)

وقد كان بجانب النصيفة هذه مغنية أخرى تدعى « جارية النطاع » ذاع صيتها أيضا فى اقليم قوص فقد كانت هى وغيرها الكثيرات أيضا يشاركن فى ليالى الأفراح والمواسم والأعياد وينشدن المدائح النبوية والأشعار الحكمية والقصائد فى العشق والغزل بأصواتهن العذبة الشجية التى تأخذ بأسماع أبناء قوص حتى أنهم كانوا اذا ما سمعوا بلياليهن يقطعون في ذلك مسافات بعيدة ويتكبدون كثيرا من المشاق فى سبيل مشاهدتهن وسماعهن وهم فى كل ذلك فى قمة السعادة والنشوة (٣) .

---

(١) الترجمة رقم ٢٥٠
(٢) المصدر السابق ـ الترجمة ١٢٢ .
(٣) المصدر السابق ـ ص ١٩٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ .

وقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يقومون بأداء غنائهم هذا على آلات موسيقية كانت معروفة في ذلك الوقت كالدفوف ومفرده (دف) والمعروف عند العامة (بالطار) والشبابات أيضا ومفرده (شبابه) وهو (المزمار) أو (الأرغول) والعود الذى كان يطلق على ضاربه عواد وعلى ضاربته عواده والرباب ومفرده (ربابه) وهى التى تشبه الى حد كبير فى عصرنا الحالى (الكمنجة) (١) .

(١) المصدر السابق _ ص ٧٢٤ .

الفصل الخامس

الحركة العلمية فى قوص فى العصر الاسلامى

مدارس قوص وجوامعهـا ـ خـزائن الكتب والمكتبات ـ العلوم التى كانت تدرس فى هذه المدارس وأساتذتها ـ الأدب (الشعر والنثر) حركة التأليف ـ النسخ .

الحياة الروحية ـ الربط والزوايا ـ المتصوفة ومريدوهم .

الشيعة والمتشيعون فى قوص .



لقد شهدت قوص فى العهد الاسلامى نهضة ثقافية واسعة النطاق لاتقل بحال عما كانت تتمتع به عواصم العالم الاسلامى فى ذلك الوقت من تقدم وازدهار كالقاهرة ودمشق وحلب والاسكندرية ، وقد ساعدها على ذلك انها كانت عاصمة الصعيد وكانت من جانب آخر طريقا سهلا ميسورا نحو المشرق والمغرب . فعرفها على أثر ذلك العديد من العلماء والفقهاء المشارقة والمغاربة فى رواحهم وغدوهم من الأراضى المقدسة فى مواسم الحج أو فى سياحاتهم المختلفة الى المشرق والمغرب . وقد اتخذها الكثير منهم دار مقام لهم حتى وفاتهم ، وقد كان ذلك مدعاة أن ينظر اليها صلاح الدين الأيوبى مؤسس دولة بنى أيوب فى مصر نظرة بالغة الاهتمام فاتخذها قلعة يضرب من خلالها الشيعة الذين كانوا قد تمركزوا فى اغلب مدن الصعيد ، كما سيأتى الحديث فرارا من اضطهاد الأيوبيين لهم ، فأنشأ بها العديد من المدارس والجوامع التى تعتنى بتدريس فقه السنة ليقضى بذلك على آراء الشيعة وعقائدهم فى الاسلام . وقد اقتفى طريقه من بعده اغلب

سلاطين الأيوبيين والمماليك فبالغوا فى انشاء هذه المدارس والجوامع وشجعوا كذلك العلماء والفقهاء فى تدريس فقه السنة على المذاهب الأربعة وأفرطوا فى العطاء لهم ومنحوهم الكثير من الامتيازات والمكافآت ، فتفجرت فى قوص على أثر ذلك ثورة ثقافية امتد أثرها الى عواصم العالم الاسلامى وقد تمثلت هذه الثورة فى العديد من المدارس والجوامع التى كانت تكتظ بها هذه المدينة ، وكذا هذا الحشد الهائل من العلماء والفقهاء الذين ينتسبون اليها والذين تفيض بهم كتب التراجم والطبقات التى ألفت فى عصر المماليك ، بالاضافة الى تلك الجموع الغفيرة من طلاب العلم والمعرفة الذين أخذوا يتوافدون عليها من مختلف مدن الصعيد يتلقون على أيدى هؤلاء العلماء والفقهاء العلوم الاسلامية ويتفقهون فى الدين الاسلامى الحنيف .

مدارس قوص وجوامعها :

بلغت المدارس التى أنشئت فى قوص فى عصرى الأيوبيين والمماليك على حد قول الأدفوى فى طالعه السعيد (١) والمقريزى فى خططه (٢) ست عشرة مدرسة من أهمها :

١ — المدرسة النجيبية نسبة الى مؤسسها عبد الله

---

(١) الادفوى الطالع السعيد ص ٢٧ .
(٢) المقريزى الخطط ج ١ ص ٢٣٦ .

ابن النجيب القوصى المتوفى سنة ٦٤٢ هـ ـ ١٢٤٤ ميلادية والتى هى أصب الخير كما يقول أهل قوص ٠

٢ ـ دار الحديث السابقية نسبة الى السابق والى قوص الذى أمر بانشائها ٠

٣ ـ المدرسة النجمية نسبة الى الملك الظاهر ركن الدين البغدادى الصالحى النجمى الذى أمر بانشائها وتعميرها (١) ٠

٤ ـ المدرسة الغربية التى تقع على الساحل الغربى من مدينة قوص (٢) ٠

٥ ـ المدرسة الأفرمية التى أنشأها الأفرم أمير جندار فى عهد السلطان عز الدين أيبك التركمانى ٠

٦ ـ المدرسة الشمسية نسبة الى أحمد بن على الاسنائى المنعوت بالشمس ٠

٧ ـ المدرسة السراجية ٠

٨ ـ المدرسة الخاتومية (٣) ٠

٩ ـ مدرسة ابن الأسفونى ٠

---

(١) ابن الفرات تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ١٣٣ ٠
(٢) ابن نوح الاقصرى الوحيد ٠٠ جـ ١ ورقة ١٨٨ ٠
(٣) ابن حجر العسقلانى ـ الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٦٠٠ ٠

١٠ ـ مدرسة ابن السديد .

١١ ـ المدرسة السقطية .

١٢ ـ المدرسة المجدية .

١٣ ـ المدرسة العزية .

١٤ ـ المدرسة السابقية ، وهى ملحقة بدار الحديث السابقية (١) .

بالاضافة الى هـذه المدارس نلمس أيضـا عددا من الجوامع والمسـاجد كان لها دور فعال فى نشر العـلوم الاسلامية بجانب كونها أماكن للعبادة (٢) والتى من أهمها:

١ ـ الجامع العمرى الذى أنشىء بقوص فى أوائل الفتح ثم سمى بالجامع العتيق ثم عرف بعـد ذلك بجامع قوص .

٢ ـ جامع الجلال الذى شيده الجلال القزوينى والى قوص .

٣ ـ جامع الصارم .

٤ ـ الجامع الأبيض .

---

(١) راجع هذه المدارس فى الادفوى ـ الطالع السعيد فى تراجم متفرقة ـ الدكتور أحمد أحمد بدوى ـ الحياة العقلية .. ص ٥٦ .
(٢) ابن نوح الوحيد فى ورقات متفرقة .

٥ ــ مسجد الفتح .

٦ ــ المسجد المعلق بسوق المغربلين .

٧ ــ المشهد الجيوشي .

وقد كانت العادة المتبعة في ذلك الوقت حين الانتهاء من تشييد هــذه المدارس والجوامع أن يحتفــل بافتتاحها احتفالا رسميا فيمد السماط ويدعى الأمراء والولاة وعلية القوم والعلماء والفقهاء ثم ينشد الشعراء قصائدهم ويلقى الخطباء خطبهم مادحين مقرظين هذا العمل الانساني الجليل. وقد ذكر الأدفوى في طالعه السعيد الخطبة التي ألقاها أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتي في افتتاح دار الحديث السابقية التي أنشأها الســابق والى قوص قال فيهــا : « ... وأدار حديثها وحديث فضلها وسار بفخرها وعزها المثل السائر حتى عز وجود مثلها وشاكلت مهابط وحي الله المحجوجة بأهل شرفها وشرف أهلها فأسست على تقوى من الله ورضوان ..... (١) .

وهذه المدارس كانت تخضع لادارة حازمة رشيدة حيث كانوا يكلون أمر الاشراف عليها وادارتها لشخص يطلقون عليه « القيم » وهو يشبه الناظر في عصرنا هــذا وكان لابد أن يكون هذا القيم أو الناظر عالما فقيها معروفا مشهورا بين الناس بعلمه وفقهه وتقواه يعاونه في ذلك

---

(١) الادفوى ــ الترجمة رقم ٧١ .

المدرسون والمعيدون الذين كانوا يجيبون على أسئلة الطلبة ويوضحون لهم ما كان يغمض عليهم فهمه من دروس ، وكانت تلحق بكل مدرسة مصلى أو زاوية لاقامة الشعائر الدينية يتولى أمر الامامة فيها الطلبة المعروفون بالورع والتقوى ، كما يشرف على اقامة الآذان أيضا من هو مدرك منهم لمعلومات الميقات (١) .

وقد حظيت هذه المدارس والجوامع والمساجد برعاية الأمراء والسلاطين وأرباب الجاه والثراء ، فأوقفوا الأوقاف والاحباس للانفاق عليها وجعلوا للقائمين بالتدريس فى هذه الأماكن من علماء وفقهاء جامكية وهى ما تشبه الرواتب كما وهبوا الدارسين أيضا منحا وعطايا من ملابس ومأكولات تشجيعا لهم على الاستمرار فى الدرس وتحصيل العلوم (٢) .

خزائن الكتب والمكتبات :

ولقد كانت أيضا كل مدرسة من هذه المدارس السابقة الذكر تلحق بها خزائن الكتب أو المكتبات كى تمد الطلبة والدارسين بالكتب والمراجع التى يصعب الحصول عليها حتى يتسنى لهم زيادة البحث والاطلاع . فخزانة المدرسة النجيبية كانت بها جملة كتب فى علوم شتى منها : « عيون الأدلة لابن القصار المالكى المتوفى ٣٩٧ هـ - ١٠٠٦ م وهو

(١) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة رقم ٥٤٨

(٢) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة تراجم متفرقة

فى نحو من ثلاثين مجلدا » وفي خزانة المدرسة السابقية كذلك « السنن الكبير للبيهقى المتوفى ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م » وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م. وهو فى أربعة عشر مجلدا « والمعجم الكبير فى الحديث للطبرانى المتوفى ٣٩١ هـ - ١٠٠٠ م » والبسيط فى التفسير للامام الواحدى المتوفى ٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م (١) . وغالبا ما كانت هذه الكتب ترد الى خزائن هذه المدارس عن طريق الاهداء أو الوقف ، بالاضافة الى أن بعض العلماء الذين كانوا يملكرن فى منازلهم مكتبات خاصة يوصون قبل وفاتهم باهدائها الى المدارس أو الجوامع تخليدا لذكراهم وكى يستفيد الطلبة والدارسون منهم (٢) .

وكان طلبة قوص يحرصون كل الحرص على التردد على خزائن الكتب هذه ويقضون الساعات الطوال فى البحث والاطلاع وكان من عادتهم أثناء اطلاعهم أن يتركوا كثيرا من الشروح والتعليقات على هوامش هذه المؤلفات وقد أشار الأدفوى فى حديثه عن ابن دقيق العيد انه كان يرحمه الله كثيرا ما يترك علامات على هوامش الكتب التى كان يطالع فيها (٣) وكان يتولى الاشراف على هذه الخزائن

(١) الادفو الطالع السعيد - الترجمة رقم ٤٦٣
(٢) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة رقم ٤٦٣
(٣) الادفوى الطالع السعيد - الترجمة ٤٦٣

والمكتبات خازن الكتب وهو الأمين الذى يعاونه الطلبة فى سبيل الحصول على ما يطلبونه من هذه الكتب .

العلوم التى كانت تدرس فى هذه المدارس وأساتذتها :

وأما عن العلوم التى كانت تدرس فى هذه المدراس والجوامع فهى : « **علوم الفقه** » على مذهب الامامين الشافعى ومالك **والتفسير والحديث ، وعلم القراءات ، وعلم الفرائض** (المواريث والتركات) **والنحو والتاريخ والأدب والجبر والمقابلة والهندسة وعلوم الميقات (١) .**

وقد كان لكل علم من هذه العلوم أساتذته المتخصصون الذين يفوقون الحصر ففى علوم الفقه نرى الفقيه الحجة مجد الدين القشيرى الذى يعتبر بحق موسوعة جامعة فى العلوم الفقهية وبصفة خاصة فى فقه الامامين الشافعى ومالك وقد تولى تدريسها فى مدرسة النجيبية فى أول نشأتها وظل كذلك حتى وفاته ، وقد تلقى على يديه أغلب أبنـاء الصعيد فلا تكاد تخلو ترجمة من تراجم الطالع السعيد من ذكر اسمه والاشارة اليه ثم خلفه ابنه العالم الفقيه تقى الدين ابن دقيق العيد قاضى قضاة المسلمين فى العصر المملوكى الذى استفاد على يديه الكثيرون من أبناء الديار المصرية بصفة عامة . وفى علوم التفسير نرى الامام

---

(١) وهى علوم الهيئة أو الفلك التى كانت تلعب دورا هاما فى تحديد مواقيت الصلاة ورصد أهلة الأشهر القمرية .

العالم الحسن بن الزبير السبتى القوصى وفى الحديث ابن بنت الجميزى . والسيراجى ، والفخر الفارسى وأبو الحسن البنا ورقية بنت وهب القشيرى وفى علم القراءات ناشىء أبو البقاء القوصى الضرير وفى النحو شيت القفطى وفى التاريخ والأدب النميرى القوصى ومحمد بن عيسى النصيبينى القوصى وفى الجبر والمقابلة ابن منيع النميرى وفى علوم الميقات عثمان بن الحسن المنعوت بالفخر القوصى (١) .

بالاضافة الى أن هذه المدارس قد عرفت نظام الأساتذة الزائرين الذين كانوا يمرون بقوص فى مواسم الحج أو فى سياحاتهم المختلفة بين المشرق والمغرب من هؤلاء محيى الدين بن عربى وعمر بن الفارض وأبو الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وغيرهم كثيرون ـ فيحدثنا عبد الغفار ابن نوح الأقصرى فى كتابه الوحيد أن أبا العباس المرسى مكث ثلاثين يوما فى المدرسة الغربية بساحل قوص وهو فى طريقه الى الحج يدرس علوم الحقيقة ، وقد أوضح للطلبة كثيرا من المسائل التى غمض عليهم فهمها (٢) .

وقد اعتنى هؤلاء العلماء والفقهاء بتدريس كتب معينة فى هذه العلوم يلزمون الطلبة باجادة حفظها وفهمها ، فمن هذه الكتب فى علوم الفقه « فقه الامام الشافعى » التنبيه والمهذب وهما فى فروع الشافعية للامام ابى أسحق الشيرازى

(١) راجع هؤلاء العلماء فى الطالع السعيد فى تراجم متفرقة .
(٢) عبد الغفار بن نوح الوحيد .. جـ ١ ورقة ١٨٨

المتوفى ٤٧٦ هـ ـ ١٠٨٣ م ـ والتعجيز فى مختصر الوجيز لابن موسى الموصلى الشافعى المتوفى ٦٧١ هـ ـ ١٢٧٢ م ـ وفى فقه الامام مالك موطأ مالك وفى علوم الحديث صحيح البخارى وصحيح مسلم والثقفيات وهى طائفة من أجزاء الحديث للحافظ أبى عبد الله الأصفهانى المتوفى ٤٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م وفى التفسير البسيط للامام النيسابورى المتوفى فى ٤٦٨ هـ ـ ١٠٧٥ م وفى النحو كان الطلبة يقرأون مؤلفات سيبويه ويحفظون مقدمة ابن الحاجب النحوى (١) .

ولم تكن هناك مختصات فى علم معين يفرض على الطلبة بل من حق الطالب أن يأخذ بنصيب وافر فى كل علم يرى فى نفسه الكفاءة والمقدرة على استيعابه واجادة أخذه . وقد كان التقليد المتبع فى هذه المدارس بعد فراغ العلماء والفقهاء من تدريسهم لهذه الكتب أن يقوموا بتوزيع بعض من المأكولات والحلوى على طلبتهم احتفالا بانتهاء الكتاب الذى تعين شرحه وتدريسه (٢) كما أنهم كانوا يمنحون الطلبة المتفوقين ما كانوا يسمونه فى العصر الاسلامى (بالاجازة) وهى شهادة تقر صلاحية الطالب للدرس والفتيا . ولم يكن أغلب طلبة قوص يقتنعون بالدراسة فى هذه المدارس بل كانوا يشتاقون الى مزيد من

(١) الادفوى ـ الطالع السعيد ـ فى تراجم متفرقة
(٢) الادفوى ـ الطالع السعيد ـ الترجمة ٥٥٥

العلم والمعرفة لذلك نراهم بعد فراغهم من الدراسة في هذه المدارس يرتحلون الى القاهرة أو دمشق أو حلب او الاسكندرية أو يجاورون بمكة ومنهم من كان يرجع الى بلده يطمع في أن يتقلد مناصب رئيسية في الدواوين أو يتولى شئون التدريس ، ومنهم من كان يقيم في المكان الذى رحل اليه حتى وفاته ٠

وقد تخرج في هذه المدارس العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء الذين ساهموا مساهمة فعالة في احياء الثقافة الاسلامية حتى أن أسماءهم ما زال يرن صداها حتى يومنا هذا من هؤلاء : ابن دقيق العيد العالم الفقيه وقاضي قضاة المسلمين في العصر المملوكي وأبي جعفر الادفوى وشهاب الدين النويرى القوصي وابن نوح الأقصرى وغيرهم كثيرون ٠

الأدب وفنونه :

لقد كان للأدب من نظم ونثر في قوص خلال هذه الفترة سوق رائجة ومكانة مرموقة حيث ظهر في مجتمع هذه المدينة كثير من الشعراء والأدباء الذين جادت قرائحهم بالجيد من منظوم الكلام ومنثوره وقد ساعد على ذلك عدة أمور منها :

أن مدينة قوص بما اشتهرت به من حسن وبهاء وتقدم وازدهار في العصر الاسلامي الذى يؤرخ له كانت حافزا

للشعراء والأدباء أن يتغنوا بها وأن يصفوا حسنها هـذا وتقدسها نظما أو نثرا ، كما أن تمركز الطبقة الحاكمة من امراء وولاة وحكام وقضاة بهذه المدينة بالاضافة الى أرباب الجاه والثراء جعلت الشعراء بصـفة خاصـة يدبجون العديد من القصائد في مديح هؤلاء القوم أملا في الوصول الى مناصب رفيعة في الدواوين أو بغية تكسب وعطاء ، ولعل في طريق قوص السهل الآمن الى الأراضى المقدسة ما جعل هذه المدينة تروج رواجا منقطع النظـير في مواسم الحج والعمـرة في الذهاب وفي العودة ، فكان ذلك دون شـك كسبا عظيما لازدهار الأدب وبصفة خاصة النظم ، فقد استلهم الشعراء من خلال هذه المواسم القصائد في مدح النبى عليه الصلاة والسلام وعلى بيته الأطهار ووصـف الأماكن المقدسة وفي تهنئة الحجاج بسـلامة عودتهم كما أن الغيرة على العقيـدة الاسـلامية والشريعة المحمـدية من أن تمس الأباطيـل والترهات أصحاب العقائد والمحن الأخرى كالشيعة الذين كانت تغص بهم أغلب مدن الصعيد في ذلك الوقت ، دفع ذلك الكثير من الشعراء الى تمجيد العقيدة الاسـلامية وضحد خصومها ، نضيف الى كل ذلك أن العشق والهيام والبعد والفراق والألم والبكاء ، هذه المعاني كثيرا ما كانت تعتمل في نفوس أبنـاء اقليم قـوص وتدفعهم الى التعبـير عن أحاسيسهم هذه ومشاعرهم تعبيرا صادقا أكيدا .

كل هـذه العوامل المجتمعة خلقت في مجتمع قوص نهضة أدبية ذاع صيتها في مختلف العواصم والبلدان ،

وقد تعددت أغراض النظم فظهرت قصـائد المديح والغزل والرثاء والهجاء والموال الذى يحـكى لونا من ألوان الفن الشعبى « الفولكلور » يردده القوالون والمنشدون على أنغام الدفوف والشبابات ، كمـــا أنه فى مجال النثر نلمس الرسائل الديوانية والاخوانية والخطب المنبرية والمحفلية والمقامات ٠

وقد عاش فى اقليم قوص كثير من الشعراء والأدباء الذين تحدث عنهم أبو جعفر الادفوى كمحمد بن محمد بن عيسى النصيبينى القوصى (١) ومحمد بن فضل الله كاتب المرج القوصى(٢)وتاج الدين أبى الفتح محمد بن الدشناوى القوصى(٣)وأحمد بن كامل القوصى الملقب بالصلاح(٤)، ولعل أبرز هؤلاء جميعا البهاء زهير الشاعر المعروف الذى عاش شـــطرا طويلا فى مســتهل حياته فى هذه المدينة ومعه صديقه المعروف بجمال الدين بن مطروح الذى نزح من مدينة أسيوط وأقام فى قوص فترة طويلة ٠

الكتابة والتاليف :

وفى مجال التاليف نجـد الكثير من المؤلفات فى

---

(١) الادفوى ـ الطالع السعيد ـ الترجمة رقم ٤٧١
(٢) المصدر السابق الترجمة رقم ٤٧٠
(٣) المرجع السابق ـ الترجمة رقم ٣٨٩
(٤) المصدر السابق ـ الترجمة رقم ٥٩

علوم شتى كالفقه والحديث والتفسير والأدب ، فقد شرح كثير من أبناء قوص عددا من الكتاب فى هذه العلوم وذلك ما هو ملموس عند العـــالم الفقيه ابن دقيق العيد الذ ترك كثيرا من الشروح فى علـوم الفقه (١) ـ كمـا أ شهاب الدين النويرى القوصى الذى تخرج فى مدارس قوص قد ترك موسـوعة فى التـــاريخ والأدب تقع فو ٢٠ مجلدا بعنوان نهاية الأرب في فنون الأدب ما زالت تعد مرجعا أساسيا لجميع الباحثين والدارسين حتى يومنا هذا وقد خلف لنا أيضا أحمـد بن حامد شهاب الدين القوصى معجما يقع فى أربعة مجلدات سماه تاج المعاجم(٢ أشار اليه حاجى خليفة باسم معجم (الشيوخ) (٣) ذكر فيه من لقيه من المحدثين ، وعبد الغفار بن نوح الأقصرى الذى ترك أيضـا كتـابا فى جزءين بعنوان « الوحيـد فى سلوك أهل التوحيد » يعتبر مرجعا هاما للوقوف على وجه مجتمع الصـعيد فى عصر المماليك بالاضافة الى أنه قد تحدث عن كثير من رجال التصوف والفقهاء الذين عاصرهم أو أخـــذ عنهم ، وأبو جعفر الادفوى وكتابه الطـــالع السعيد الجامع لأدباء الصعيد وقد حوى ٥٩٤ خمسمائة وأربعـة وتسعين ترجمـــة لعديد من العلمـــاء والفقها

---

(١) المصدر السابق ـ الترجمة رقم ٤٦٣

(٢) المرجع السابق ـ الترجمة رقم ٨٧ .

(٣) حاجى خليفة ـ كشف الظنون ص ١٧٣٥

والمتصوفة الذين عاشوا بأرض الصعيد فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، ومحمد بن عبد العزيز بن أبى القاسم الادريسى وكتابه المفيد فيمن دخل الصعيد » (١) ذكره حاجى خليفة باسم « المفيد فى أخبار الصعيد » مفقود ، وغير ذلك كثير من المؤلفات المبعثرة فى مختلف تراجم « الطالع السعيد » للادفوى .

حركة النسخ :

لقد كان أغلب أبناء قوص أصحاب همم عالية ونشاط ملحوظ فى نسخ أمهات كتب التراث ساعدهم على ذلك شغفهم بالعلم وحسن خطهم وجودته وبهائه بالاضافة الى توافر أدوات الكتابة من أحبار وأقلام وأوراق ، فقد ورد أن النويرى كتب صحيح البخارى عدة مرات (٢) وأنه كان يتكسب من خلال هذا العمل كما أن الشيخ محمد ابراهيم أبو الطيب (٣) السبتى القوصى كتب بخط يده كتاب سيبويه ، بالاضافة الى أن الكثير من العلماء والفقهاء من أبناء قوص كانوا ينسخون القرآن الكريم وكتب الحديث ويضعونها فى ديارهم تبركا ويورثونها لأبنائهم من بعدهم ، وكان الأبناء يعتبرون ذلك ارثا مقدسا يعتزون به ويصونونه من التلف أو الضياع .

---

(١) الطالع السعيد ترجمة رقم ٤٣٩
(٢) الطالع السعيد ترجمة رقم ٥١
(٣) الطالع السعيد ترجمة رقم ٣٧٦

الحيـاة الروحية :

لم تكن الحياة الروحية فى مدينة قوص فى العهـد الاسلامى اذا قيست بالنهضة العلمية والثقافية التى سبق لنا الحديث عنها شيئا ذا قيمة يلفت نظر البـاحث أو الدارس بالاهتمام والتقدير وذلك لعدة أسباب نراها فى اعتقادنا وهى أن مدينة قوص بما كانت عليه من تقـدم وازدهار فى جانب الحياة الاقتصادية نتيجة لأسـواقها العديدة وكثرة الداخل فيـها والخارج منها من تجـار وأرباب معاشات ، ترتب عليه مزيدا من الصخب والضجيج والضوضاء لم نلحظه فى أية مدينة من مدن الصعيد فى هذه الفترة ورجـال التصـوف وأرباب الأحوال والمقـامات يميلون دائمـا لطبيعتهم الى حيـاة الهدوء والسكينة والاطمئنان لذلك لم يطيبوا نفسـا بالاقامة فى قوص ودليلنا على ذلك أن السيد القنائى رضوان الله عليه حينما هاجر من مكة الى الديار المصرية فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى نزل بقوص ولم يمكث بها أكثر من بضع ليـال وذلك لصخبها وعدم هدوئها ورحل منها الى مدينة قنـا التى كانت فى ذلك الوقت تتمتع بالهدوء والسكينة ، وقد كان لاقامة السيد القنائى فى هذه المدينة أعنى قنا أثر عظيم فى نهضة الحياة الروحية بها فاذا كانت قوص فى العصر الاسلامى تعتبر مركزا من مراكز الاشعاع الثقافى والعلمى فان مدينة قنـا فى ذلك الوقت كانت أيضا مركزا هاما من مراكز الاشعاع

الروحى فى الديار المصرية بوجه عام فى القرن السادس والسابع من الهجرة وذلك نتيجة لاقامة السيد القنائى بهـا الذى كان يعتبر بحق صاحب أكبر مدرسـة فى التصوف الاسلامى شهدها الصعيد فى القرن السادس الهجرى ، وكان ذلك مدعاة الى أن تهفو الى هذه المدينـة قلوب الكثيرين من رجال التصوف والمريدين فنحن نرى أن الشيخ أبا الحسن الصباغ القوصى الذى ولد وتربى فى قوص رحل منهـا الى قنـا وأقام بها اقامة دائمة ليكون بذلك قريبا من أستاذه وشيخه السيد القنائى. وظل كذلك الى أن توفى ودفن بها . وكان السيد أبو الحجاج الأقصرى أيضا كثير السفر الى هذه المدينة لحضور حلقات درس شيخه السيد القنائى بالاضـافة الى عديد من شـيوخ التصوف وأعيانه فى صعيد مصر فى ذلك الوقت كالشيخ مفرج الدمامينى ومجد الدين القشيرى وآلاف من المريدين الذين يصعب حصرهم ، وقد صدق فى ذلك قول الادفوى أن هذه المدينة عش الصالحين ومأوى العارفين ، خرج منها أرباب مقامات وأحوال ومكاشفات . واستفاض أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم بها وقال : « انها تقدست بابنى عبد الرحيم » (١) .

وليس معنى ذلك أن مدينة قوص لم يكن لها نصيب فى جانب الحياة الروحية على الاطلاق بل على العكس كانت

---

(١) الادفوى ـ الطالع السعيد ص ٤٢

هنـاك هذه المدينـة تتألق روحيـا فى موسم الحج والعمرة وكذا فى شهر مضان وخصوصا فى العشر الأخيرة منه ، ففى موسـم الحج والعمرة كانت هـذه المدينة تحظى باستضافة كثير من كبار رجال التصوف فى جهادهم الى الأراضى المقدسة وحين عودتهم وقد سبق لنا الاشارة الى ذلك وقد كان هؤلاء الصفوة الأخيـار يعقدون حلقـات الوعظ والدرس في الزوايا والربط والمدارس التى كانت منتشرة فى هذه المدينة ، وكان يشيع فى جو هذه الحلقات أسمى معانى الحياة الروحية على الاطلاق حيث كان الطلبة والمريدون وأبنـاء قوص عموما يلتفون حولهم فى نهم بالغ للاستفادة والتبرك ، كمـا انه فى ليالى شهر رمضان المعظم كانت هذه المدينـة تشهد أيضـا اجتماع الفقراء المتجردين أى الصوفية الذين انقطعوا الى الله سـبحانه وتعالى فى الربط والزوايا مثـل رباط الشـيخ أبى الحسن الصباغ القوصى وأبى العباس الملثم وعبد الغفار بن نوح الأقصرى وزاوية ابن الأفرم (١) يؤدون أذكارهم ويعقدون حلقـات السماع (٢) التى كانت تمتد حتى مطلع الفجر .

---

(١) ابن بطوطه ـ الرحلة ج ١ ص ٢٩

(٢) السماع : الذكر المصحوب بالانشاد على الآلات الموسـيقية كالدف والطنبور والعود .

الشيعة والمتشيعون فى قوص :

من الواضح تاريخيا أن مدينة قوص بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م وقيام الدولة الأيوبية ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م على يد الناصر صلاح الدين الأيوبى الذى عمل جاهدا هو ومن جاء بعده من سلاطين الأيوبيين والمماليك على تقويض دعائم المذهب الشيعى واحياء تعاليم المذهب السنى (١) - نقول ان هذه المدينة وتوابعها فى صعيد مصر كانت على أثر ذلك تكتظ بالعديد من الشيعة الذين لاذوا بأغلب هذه المدن على أثر كسر شوكتهم ، وحينما أحسوا بنصيب من القوة راودتهم فكرة استرجاع ماضيهم السليب فاتخذوا من مدينة أسوان فى جنوب الديار المصرية مركزا لدعوتهم فى احياء تعاليم مذهب الشيعة وتزعم أحد قادة الفاطميين ، الذى كان يدعى كنز الدولة هذه الفكرة وأخذ يروج لها بين فلول الشيعة فى مختلف مدن الصعيد وجاهدوا فى سبيل انجاح هذه الفكرة وأعدوا جيشا واتجهوا به الى مدينة قوص للاستيلاء عليها واتخاذها بحكم موقعها الجغرافى مركز اشعاع لاحياء تعاليم المذهب الشيعى ، واسترجاع مجد الدولة الفاطمية وكان ذلك فى عهد صلاح الدين الأيوبى الذى تنبه لهذا الخطر فنشط نشاطا ملحوظا لاخماد هذه الحركة فأرسل

---

(١) دكتور محمد كامل حسين دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٣٣

آخاه الملك العادل سيف الله في سنة ١١٧٤ ميلادية على رأس جيش قوى استطاع أن يقضى به على كنز الدولة هذا وأعوانه قضاء مبرما (١) وفر من بقى من أتباعه الى بعض مدن الصعيد كاسنا وأسفون وأرمنت ، فلم يهدأ صلاح الدين الأيوبي بالا بل عمل جاهدا على تطهير أرض الصعيد وبصفة خاصة مدينة قوص من رواسب المذهب الشيعي ، فأنشأ المدارس وشجع العلماء والفقهاء ورجال الصوفية في القضاء على مذهب الشيعة ونشر تعاليم مذهب السنة كما سبق أن أشرنا • ولقد كان الشيعي أمام سلطان العلماء والفقهاء يتخلى عن عقيدته ويعتنق مذهب أهل السنة فقد ورد أن الامام جلال الدين الدشناوى قال يوما للشاعر الأديب محمد بن محمد بن النصيبينى القوصى وكان متشيعا « أنت رجل فاضل » ومن أهل الحديث « ومع ذلك أشاهد عليك شيئا ما هو بعيد أن يكون في عقيدتك» فما كان من النصيبينى القوصى هذا على أثر سماعه لهذا القول الا أن تخلى عن مذهب الشيعة الذى كان يعتنقه ويتعصب له واعتنق مذهب أهل السنة (٢) •

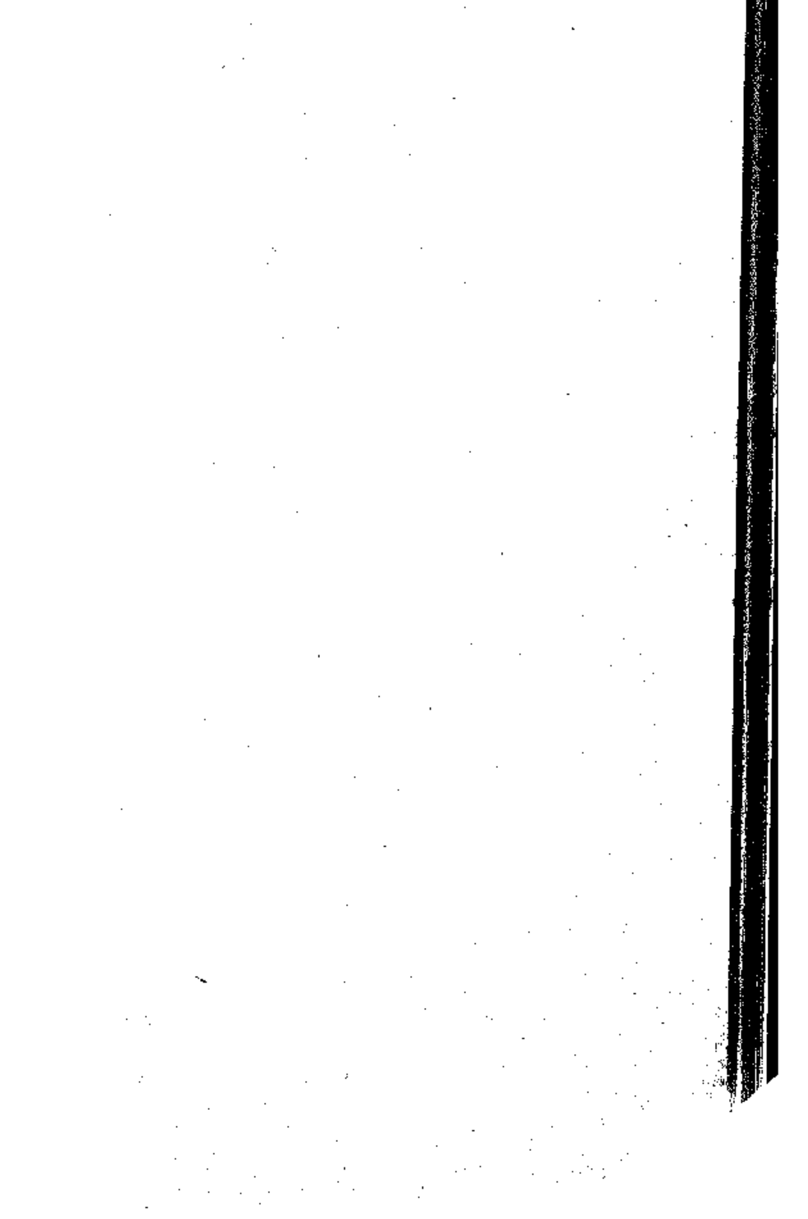
---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٣٢

(٢) الادفوى ـ الطالع السعيد ص ٦٢٧

الفصل السادس

الآثار الاسلامية بمدينة قوص



تعتبر مدينة قوص بحكم كونها عاصمة الصعيد فى العصر الاسلامى ومقر الولادة والأداة الحاكمة أغنى مدينة فى اقليم قوص على الاطلاق بالآثار الاسلامية فقد اعتنى الأمراء والحكام والولاة بتشييد العديد من الجوامع والمدارس كما اعتنوا باقامة الربط والزوايا والحمـامات وأحواض السبيل ، بالاضافة الى أنه كانت بظاهر قوص جبـانة مترامية الأطراف تضم رفاة العديد من العلماء والأوليـاء الصالحين . وقد اندثرت أغلب هذه الأماكن ولم يبق لها من أثر سوى الجامع العمرى والجبانة الاسلامية .

فالجامع العمـرى بقوص يعتبر من أقدم المسـاجد الأثرية بالصعيد ، فقد أنشىء فى عهد عمرو بن العاص فى أوائل الفتح ولذلك سمي بالمسجد العمرى نسبة اليه ، ثم عرف بعد ذلك بالجامع العتيق ، وفى عصر المماليك أطلق عليه جامع قوص ، وفى عهد الدولة الفاطمية تداعى بنيان هذا الجامع فجدده أمير المؤمنين الفائز بنصر الله وأقام فيه منبرا عليه لوحة من الخشب تشتمل على العبـارة الآتية مكتوبة بخط كوفى مشجر وذى حروف صغيرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ادع الى سبيل »
« ربك بالحكمة والموعظة الحسنة أمر بعمل هذا »
« المنبر المبارك الشريف مولانا وسيدنا الامام »
« الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله »
« وسلامه عليه وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين »
« المنتظرين على يد فتاه وخليله السيد الأجل »
« الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة »
« أمير الجيوش سيف الاسلام غياث الانام كافل »
« قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد »
« الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين »
« وأدام قدرته وأعلى كلمته فى سنة ست »
« وخمسين وخمسمائة » .

ويشبه هذا المنبر فى شكله منبر الخليل والمنبر الموجود فى جامع دير سانت كاترين بطور سيناء على ان جنبيه يكسوهما زخارف من حشوات تكون أشكالا هندسية من مستطيلات ونجوم مسدسات ممدودة مغطاة كلها بفروع نباتية ومراوح نخيلية وعناقيد عنب ، وفى القسم الاسلامى من متاحف برلين حشوة من هذا الطراز حتى ليظن أنها مأخوذة من هذا المنبر (١) ، ويعتبر هذا المنبر من أقدم المنابر فى جمهورية مصر العربية فقد أنشىء عام ٥٥٠ هـ ـ وقد شاهد الجغرافى العربى الشريف

(١) دكتور زكى محمد حسن ـ كنوز الفاطميين فى مصر ـ ص٢٢٢

الادريسى هذا المنبر حينما زار قوص ، وأشار الى ذلك فى حديثه عن هذه المدينة (١) .

وبهذا الجامع أيضا محراب يرجع الى العصر المملوكى قد زخرفت واجهته بزخارف جصية قوامها عناصر نباتية وهندسية بديعة التكوين وتشبه زخارف هذا المحراب زاوية زين الدين يوسف وكذا المحراب المملوكى فى جامع عمرو بن العاص ويحيط بالمحراب كتابة بالخط الثلث المملوكى نصها :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم »
« الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش »
« الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »
وحول قبة المحراب قوله تعالى :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء »

وفى النهاية البحرية للبائكة الرابعة والخامسة من ايوان القبلة توجد مقصورة من الخشب الخرط على جانب عظيم من الأهمية فى الجانب الشرقى من المقصورة باق على صورته الأولى ويتكون من حشوات بها زخارف محفورة حفرا عميقا وكذا الجانب الغربى وكذا باب المقصورة مكون من حشوات سداسية الشكل يحيط بها من أعلى وأسفل

---

(١) الشريف الادريسى ــ نزهة المشتاق ــ ص ٤٩

أشرطة من خشب الخرط الذى انتشر استعماله فى العصر المملوكى .

وبداخل هذه المقصورة يوجد كرسى مصحف مغطى بقماش خلق وهو من الخشب المصنوع بطريق الحشوات المجمعة والمطعم بالعاج والصدف ويحيط بالكرسى شريط من الكتابة بالخط النسخ المملوكى وتتكون من آية الكرسى والنص الآتى :

« أمر بانشاء هذا المصحف المبارك المقر الكريم »
« العالى المولى الأميرى الأجــل عز الدين خليل »
« الملك الناصرى أعز الله أنصاره بمحمد وآله »

ومن المرجح أن يكون منشىء الكرسى والمقصورة هو منشىء المحراب ، أى انها جميعا ترجع الى أوائل القــرن الثامن الهجرى .

ويحتوى المسجد أيضا على لوح تذكارى آخر مثبت على باب الميضأة قد نقش فى وسطه شكل مشكاة ثم كتب تحته اسم المقرىء الشيـــخ الصالح جمال الدين محمــد الناجى وتاريخ وفاته يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٧١٧هـ .

وقد أدخلت على هـــذا الجامع كثير من التغييرات والتشييدات التى أفقدته فى الواقع الكثير من معـــالمه الأصلية ، فمن أهم هذه الاصــلاحات والتشييدات ، تلك العمارة التى قام بها الأمير محمد كاشف فى سنة ١٢٣٣هـ .

وقد أثبت الأمير محمد كاشف عمارته للمسجد فى ثلاثة مواضع ، أحدها فى لوح صغير مثبت فى صحن المسجد والثانى فى لوح رخام مؤرخ سنة ١٢٣٣ هـ مثبت على باب الميضأة السابق ذكره ، أما اللوح الثالث فقد ثبت على مدخل المسجد وكتب عليه النص التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على »
« سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، »
« الحمد لله الذى وفق من عباده ما أراد بتجديد »
« ما أعد لطهارة العبادة للصلاة المفروضة »
« وتوابعها على لسان الحبيب المخلص بها كل »
« مطيع وعتيد ، والصلاة والسلام على من »
« أرسل لكافة المخلوقات على توالى الأيام »
« والساعات واللحظات وعلى آله وصحبه »
« الطاهرين الذين هم شيدوا الشريعة والدين »
« صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين وبعد فقد »
« جدد هذا المحل وما اشتمل عليه الجامع »
« العتيق بمدينة قوص حضرة الجناب المكرم »
« محمد كاشف قهوجى كاشف مدينة قوص »
« راجيا الثواب الجزيل من المولى الجليل بقوله »
« وهو أصدق القائلين (انما يعمر مساجد الله »

« من آمن بالله واليوم الآخر) وعمارة المحل »
« من ماله خاصة فى سلخ شهر ذى الحجة ختام »
« سنة ١٢٣٣ للهجرة النبوية » (١) .

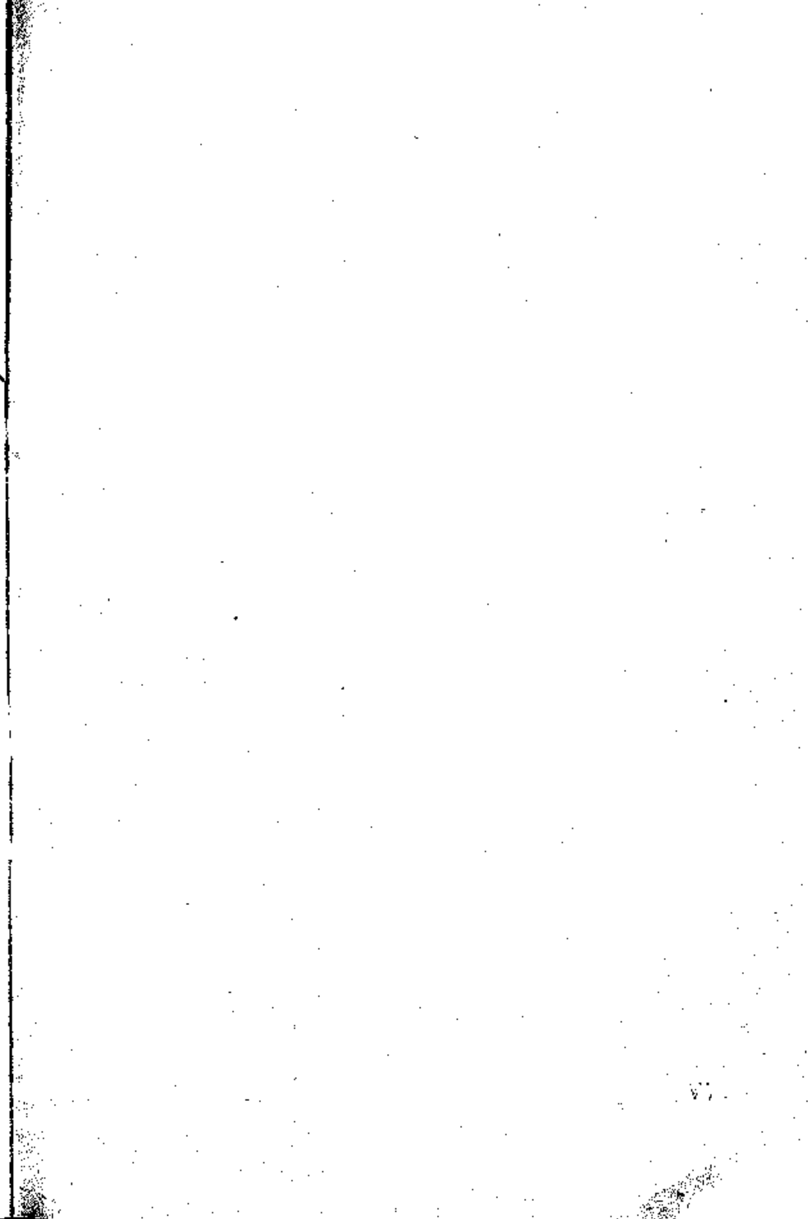
ويضيف على باشا مبارك فى حديثه عن قوص : انه في شهر رمضان سنة ٦٧٢ هجرية أتى الى الملك الظاهر بيبرس بفلوس وجدت مدفونة فى قوص على أحد وجهها صورة ملك واقف وفى يده اليمنى ميزان وفي اليسرى سيف وعلى الوجه الآخر رأس فيه اذن كبيرة وعين مفتوحة وبدائرة الفلس كتابة قرأها راهب يونانى فكان تاريخه الى وقت قراءته ألفين وثلثمائة سنة وفيه أنا (غياث الملك ميزان العدل والكرم فى يمينى لمن أطاع والسيف فى يسارى لمن عصى وفى الوجه الآخر أنا غياث الملك أذنى مفتوحة لسماع المظلوم وعينى مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى) (٢) .

ونحب أن نقول في ختام حديثنا عن الآثار الاسلامية

---

(١) الدكتورة سعاد ماهر ـ محافظات الجمهورية العربية المتحدة ص ٣٣ ـ ٣٦
(٢) راجع أيضا لجنة حفظ الآثار العربية القديمة ـ المجموعة ال ١٧ ص ١٠٨ (١٠٩)

فى مدينة قوص أن هذه المدينة فى اعتقادنا تزخر بكثير من آثارنا الاسلامية التى يتعين على رجال الآثار الاسلامية أن يتجهـوا الى التنقيب عنها فقد تفيـد كثيرا فى تاريخ حضارتنا الاسلامية ٠



مصادر البحث

اولا ـ المخطوطات :

١ ـ عبد الغفار بن نوح الأقصرى ، الوحيد فى سلوك أهل التوحيد فى جزءين مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٦ تصوف .

ثانيا ـ المصادر والمطبوعات :

٢ ـ ابن بطوطة ، الرحلة ـ المطبعة الأزهرية ـ القاهرة ١٩٣٧ .

٣ ـ ابن تغر بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٩ .

٤ ـ ابن جبير ـ الرحلة ـ تحقيق د . حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٢ .

٥ ـ ابن الجيعان ـ التحفة السنية لأسماء البلاد المصرية ـ بولاق ، ١٨٩٨ .

٦ ـ حاجى خليفة ـ كشف الظنون بأسماء الكتب والفنون ـ ١٩٤٧ .

٧ ـ ابن حجر العسقلانى ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ـ نشر وتحقيق سيد جاد الحق القاهرة ١٩٦٦ ·

٨ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ بيروت ١٨٧٩ ·

٩ ـ الادفوى ـ الطالع السعيد ـ الجامع لأسماء نجباء الصعيد ـ نشر سعد محمد حسن القاهرة ١٩٦٦ ·

١٠ ـ الادريسي ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآثار ـ ليدن ١٨٥٢ ·

١١ ـ ابن دقماق ـ الانتصار بواسطة عهد الأمصار ج ٥ ـ القاهرة ١٩٠٩ ·

١٢ ـ السمعانى ـ الانساب·ليدن مطبعة بريل ١٩١٢ ·

١٣ ـ شهاب الدين القلقشندى · صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩١٧ ·

١٤ ـ أبو صالح الأرمنى ـ تاريخ أبى صالح الأرمنى المعروف بكنائس وأديرة مصر اكسفورد ١٨٩٥ ·

١٥ ـ صفى الدين بن عبد الحق ـ مراصد الاطلاع ـ برلين ١٨٩٥ ·

١٦ ـ عبد الرحمن بن نصر الشيزرى ـ نهاية الرتبة فى طلب الحسبة نشر وتحقيق دكتور الباز العرينى ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ ·

١٧ ـ ابن العماد الحنبلى ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ .

١٨ ـ أبو الفدا ـ تقويم البلدان ـ باريس ـ ١٨٥٠ .

١٩ ـ ابن الفرات ـ تاريخ مصر ـ بيروت ـ المطبعة الأمريكانية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ .

٢٠ ـ ابن مماتى ـ قوانين الدواوين ـ تحقيق جورج سوريال عطية ـ القاهرة ١٩٤٣ .

٢١ ـ المقدسى ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ ليدن ١٩٠٦ .

٢٢ ـ المقريزى ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار الموسوم بالخطط فى جزءين ـ بولاق ـ ١٢٧٠ هـ .

٢٣ ـ البيان والاعراب عما حل بأرض مصر من اعراب ـ نشر وتحقيق عبد المجيد عابدين ـ القاهرة ـ عالم الكتب ١٩٦١ .

٢٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ دار الكتب المصرية ـ حققه ووضع حواشيه د. محمد مصطفى زيادة ، ١٩٣٤ .

٢٥ ـ ناصر خسرو ـ سفر ناما (بالفارسية) ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ـ القاهرة ١٩٤٥ .

٢٦ ـ اليافعى ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ـ طبعة حيدر آباد ـ ١٣٣٨ .

٢٧ ـ ياقوت الرومى ـ معجم البلدان ـ القاهرة ١٩٠٦ .

ثالثا ـ المراجع الحديثة :

٢٨ ـ د. أحمد أحمد بدوى ـ الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية . القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ .

٢٩ ـ بتلر « مستشرق انجليزى » الفتح العربى لمصر ـ نقله الى العربية محمد فريد أبو حديد ـ القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٣٣ .

٣٠ ـ حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الاسلام السياسى فى ثلاثة أجزاء ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٣١ ـ حسن ابراهيم حسن ـ الفاطميون فى مصر ـ القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩٣٢ .

٣٢ ـ حسن أحمد محمود ـ الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٣٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية باشراف لجنة من الأساتذة ـ القاهرة ـ زانباور ـ معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ـ القاهرة ١٩٥١ .

٣٤ ـ د . زكى محمد حسن ـ كنوز الفاطميين ـ القاهرة ١٩٣٥ .

٣٥ ـ دكتورة/ سعاد ماهر ـ محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية ـ القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الشئون الاسلامية ١٩٦٦ .

٣٦ ـ د. سعيد عبد الفتاح عاشور ـ الحركة الصليبية ـ القاهرة الأنجلو ١٩٦٣ .

٣٧ ـ د . صبحي لبيب ـ التجارة الكارمية في مصر في العصور الوسطى ـ مقال منشور بالمجلة المصرية التاريخية . المجلد الرابع ـ العدد الثاني ـ مايو ١٩٥٢ .

٣٨ ـ د. عبد الرحمن زكي ـ الاسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ـ القاهرة معهد الدراسات العربية ١٩٤٥ .

٣٩ ـ د. مصطفى مشرفة ـ نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين ـ القاهرة دار الفكر العربي ١٩٤٨ .

٤٠ ـ د. عمر رضا كحالة ـ معجم القبائل العربية ـ المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩ .

٤١ ـ د. علي ابراهيم حسن ـ مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٩ .

٤٢ ـ علي باشا مبارك ـ الخطط التوفيقية ـ بولاق ـ ١٣٠٦ .

٤٣ ـ محمد شملول الشريف ـ عروبة مصر من قبائلها ـ القاهرة ١٩٦٥ ٠

٤٤ ـ محمد رمزى ـ القاموس الجغرافى ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٥٤ ٠

٤٥ ـ محمد عبده الحجاجى ـ شخصيات صوفية فى صعيد مصر فى العصر الاسلامى ـ القاهرة ١٩٧١ ٠

٤٦ ـ محمد كامل حسين ـ دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ـ القاهرة ١٩٥٧ ٠

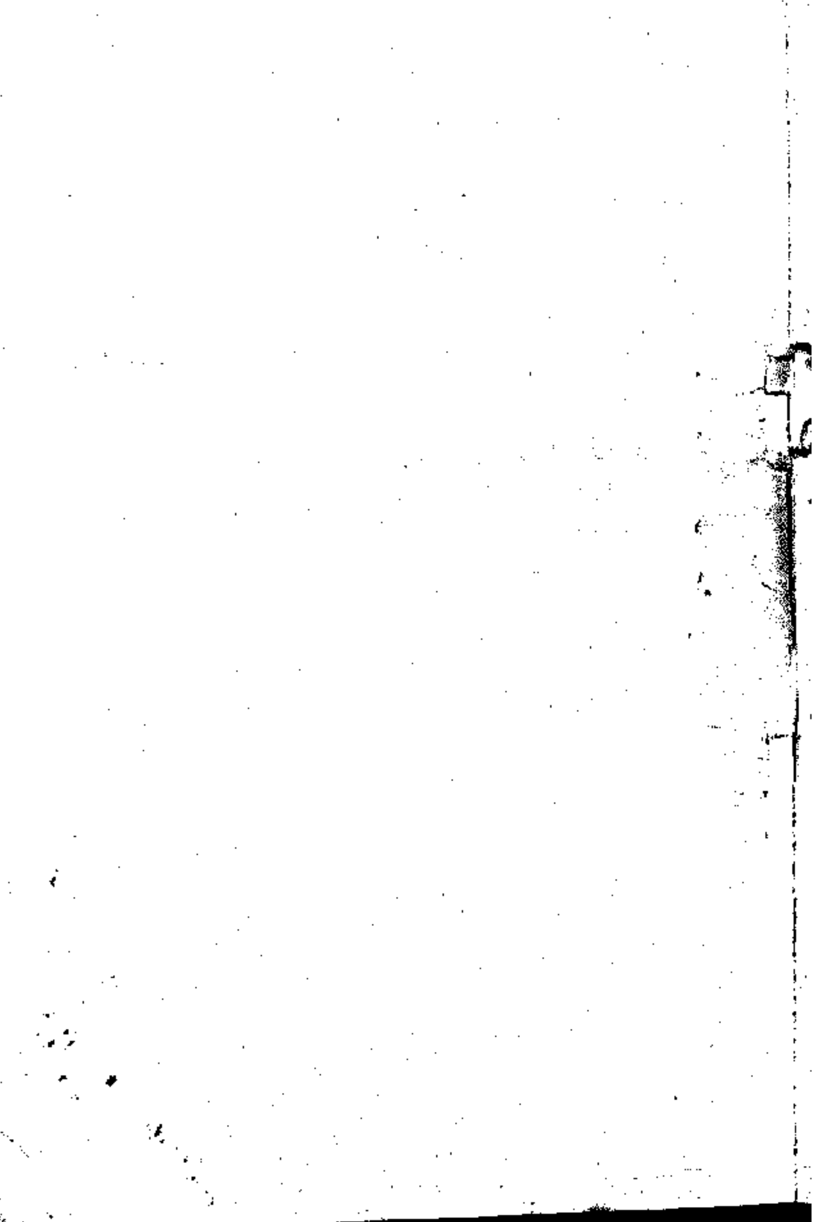
٤٧ ـ لجنة حفظ الآثار العربية القديمة ـ القاهرة ـ بولاق ١٩٠٢ ٠

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٧٦ / ١٩٨٢

ISBN ٩٧٧ ـ ١ ـ ٤٣ ـ ٩



هـذا الكتاب :

● قوص مدينة ضاربة فى التاريخ ، تقع على النيل من البر الشرقى فى الجنوب ، حازت على مكانة مميزة فى عصورها التاريخية ، ولكنها فى العصر الاســـلامى اكتسبت تاريخا حافلا بالأحداث والمواقف الخالدة . . فكانت مقصـــدا لعديد من الجنســـيات المختلفة التى تفاعلت بمضى الزمن فى ســـهولة ويسر مع اهلهـا الأصليين حتى أصبح مجتمعها نمـــوذجا لطبقـات المجتمع المختلفة .